إيرين نيميروفسكي

ذُباب الخريف

'موهبة لا تُقاوَم'
Guardian

مكتبة

رواية

دار الساقي

ترجمة وتقديم
إسكندر حبش

من الأدب الروسي

لا توقف رحلة القراءة عند هذا
الكتاب سجل في مكتبة الآن
وانضم إلى أكبر موفر للجديد من الكتب

امسح الكود أو اضغط الصفحة اتبع الرابط

ذُباب الخريف

مكتبة

t.me/soramnqraa

Irène Némirovsky, *Les mouches d'automne*

© Irène Némirovsky

الطبعة العربية

© دار الساقي 2023
جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 2023

ISBN 978-614-03-2278-3

Published 2023 by Dar Al Saqi

Dar Al Saqi
Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP
Tel: +44 (0) 20 7221 9347

www.daralsaqi.com
www.saqibooks.com

تابعونا على

@SaqiBooks @DarAlSaqi
@SaqiBooks دار الساقي
Saqi Books DarAlSaqi
@saqibooks @daralsaqi

تصميم الغلاف: عفيفة حلبي

إيرين نيميروفسكي

مكتبة
t.me/soramnqraa

ذُباب الخريف

ترجمة وتقديم

إسكندر حبش

دار الساقي

إيرين نيميروفسكي: الكتابة ونحت الصورة

إسكندر حبش

قبل أن "تُنبش رفات" كتاب *Suite française* [**متتالية فرنسية**] في العام ٢٠٠٤، الذي جاء بمثابة صورة قاسية ودقيقة عن النزوح الفرنسي بسبب الاحتلال النازي (خلال الحرب العالمية الثانية)، كان هناك كتابان لهذه الروائية المولودة في كييف العام ١٩٠٣ لا يزالا عالقين بشكل طفيف في الذاكرة الأدبية الفرنسية، وهما *Le Bal* [الحفل] و *David Golder* [دافيد غولدر]. كتابان، يضعهما النقاد في خانة الرواية الساخرة ويعودان إلى سنة ١٩٢٩–١٩٣٠، أي بعد أن أنهت الكاتبة إجازتها التعليمية في الآداب من جامعة السوربون، ودخولها عالم الكتابة حيث عرفت نجاحاً كبيراً، منذ البداية. جاءت رواية **متتالية فرنسية** لتعاود التذكير بها وبمصيرها المأسوي، لتحاول العديد من دور النشر الفرنسية، إعادة إصدار أعمال الكاتبة

التي نكتشف فيها تلك النظرة الشاملة للأزمة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية في فترة ما بين الحربين العالميتين. نظرة تتأرجح حول تراث عائلة (غادرت روسيا بعد الثورة البلشفية) والحنين إلى تلك البلاد والحياة التي كانت، وغرابة أن تكون يهودياً في مجتمعك الجديد، الذي انتهي به الأمر بأن طردك واعتقلك وأودى بك إلى معسكرات الاعتقال، حيث عرفت النهاية المحتومة، على الرغم من رغبتك الكبيرة في أن تكون فرنسياً. أعمال جاءت لتطلق صرخة كبيرة من دون أن يقع صاحبها ضحية الضعف ومن دون أن يقع في فخ العودة إلى طائفته.

في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام ٢٠٠٤، مُنحت جائزة Renaudot (وهي ثاني أهمّ جائزة أدبية فرنسية بعد Goncourt) لكاتبة كانت رَحَلت عن دنيانا قبل أكثر من ستين عاماً. بل أكثر من ذلك، كانت الرواية غير مكتملة، إذ لم يتسنّ الوقت لكاتبتها التي أُرسلت إلى أوشفيتز، كي تنهيها. اعتقلت الكاتبة يوم ١٣ تموز/ يوليو من العام ١٩٤٢، وبعد أربعة أيام كان الموت ينتظرها هي وغيرها. فوز رواية **متتالية فرنسية**، دفع بها إلى نجاح عالمي غير متوقع، إذ تُرجمت إلى لغات كثيرة (بينها العربية)، ولتذكّر الفرنسيين ليس فقط بكاتبة خرجت من دائرة الضوء، بل بتاريخهم الذي يحاولون إخفاءه: تاريخ تعاونهم الوثيق

مع النازيين ومعاداتهم للسامية بأبهى صورها.

في أي حال، لا بدّ لهذه الرواية - **متتالية فرنسية** - أن تدفعنا إلى طرح سؤال: كم عدد الروايات في العالم التي وضعت أمام نفسها هذا التحدي: تحدي تحويل لحظة تاريخية فعلية - وهنا غزو فرنسا واحتلالها - إلى عمل متخيّل فوري، أي إلى أدب روائي؟ قد نجد جواباً على تساؤلنا، في جملة كتبتها الروائية في دفتر يومياتها تعود إلى شهر آذار/ مارس من العام ١٩٤٢: "أنا أعمل على الحمم الساخنة. أكنت في ذلك على صواب أم على خطأ، أعتقد أن هذا هو ما يجب أن يميّز فن عصرنا عن فن الآخرين، إنه نحت الصورة". في تعاملها مع هذه المواد الحيّة، وحتى مع "هذه المواد المسببة للتآكل"، لا بدّ أنها طريقة عرّضت إيرين نيميروفسكي لخطر حرق أصابعها. من دون شفقة ولكن ليس من دون حنان، لم تتوقف الكاتبة قطّ عن دعوة شخصيات غير مرغوب فيها إلى عملها، فقدمت صورة عن فرنسا في ثلاثينيات القرن الماضي، عبر مرآة لا تسرّ أبداً كارهي الأجانب، على الرغم من أنها لم تتخيّل يوماً في أن تكون ضحية هذا الأمر. ربما هو كبرياء الكاتبة، رفضها لكل عملية توارث، ازدراؤها السياسة، ولكن أكثر من أي شيءآخر، رغبتها في أن تصبح فرنسية، ما أعمى نظر الكاتبة لأن ترى فعلاً ما يجري في الواقع، على العكس من أدبها

الذي جاء شديد الوضوح. هذا التناقض، إذا جاز القول، قد يُفسّر بالفكرة التالية: ربما توجب عليها - لكي تستطيع أن تلقي نظرة ثاقبة على الفرنسيين (وهي النظرة التي ألقتها على أبناء ملتها، أي اليهود، في روايات عديدة) - وقبل أي شيء آخر، أن تشعر بأنها أصبحت غريبة عن فرنسا. هذا الكبرياء هو الذي يتردد صداه في نهاية **متتالية فرنسية**: الرفض العنيد لـ"اتباع السرب" ودمج مصيرها في مصير فرنسا - كأن شخصيتها الفردية التي بنيت بصبر لم تفز قطّ بأي مكانة أخرى داخل الأمة غير "مكانة اليهود" المشؤومة.

كانت إيرين نيميروفسكي، وهي يهودية أجنبية مستهدفة من قبل الدولة الفرنسية المعادية للسامية، تدرك أنها كانت تكتب عملاً لما بعد وفاتها. ومع ذلك، فإن **متتالية فرنسية** لا تشهد إلّا على هدية خيالية غير عادية. إذ أظهرت إعادة نشر رواياتها والكشف عن أعمال غير منشورة، أن عملها الأدبي، من خلال الدهشة والخلافات التي لا تزال تثيرها، لا يزال راهناً، ويطرح على القارئ الفرنسي على سبيل المثال، بصراحة وحشية، مسألة الاستقبال المحفوظة للأجانب والغرباء. هكذا تأتي شخصية الطبيب المشرقي أصفر، فحين "تقصفه" الكاتبة بتلك الكليشيهات معادية للأجانب، فإنها تفعل ذلك لتختبر غضبه وتستخلص منه هذه الصرخة: "أنتم الذين تحتقرونني، أيها الفرنسيون

الأغنياء، الفرنسيون السعداء، كل ما أردته منكم هو ثقافتكم وأخلاقكم وفضائلكم [...] كلّ ما هو مختلف عن الطين الذي ولدت فيه!" لأنهم، الفرنسيين، كانوا يجسدون له "حياة الدماء والأعصاب الغامضة"، التي شحذها الإدراك المنتشر "لقرون من البؤس والمرض والقمع"، من هنا إن اليهود في عينيه هم تجسيد لهذه الرغبة القاسية في الشدائد. "حرارة الدم" هذه، غير المعروفة للقبائل الفرنسية المسالمة، تبث حياة مؤلمة تقريباً في عملها. ومن هنا جاء هذا المزيج الفريد من الصور النمطية المشكوك فيها والاستدعاءات الدافئة التي ترضي بها يهودها، وترى دوافعهم جيداً. إنها صور للدفاع عن نفسها داخل هذه العلاقة الحميمة، الحقيقية، مع شخصياتها التي تجبرها على أن تكون بهذه الضراوة. من هنا نفهم قول الكاتب الفرنسي هنري دو رينييه Henri de Régnier الذي يلخص هذه القدرة عند الكاتبة باختلاف لفظي: لقد وُهِبت إيرين نيميروفسكي "تعاطفاً لا يرحم"، إنّه مزيج من السخرية والشفقة ستطلق عليه في متتالية فرنسية اسم "روح ديكنز". بهذا "السعر" يبقى عملها على قيد الحياة.

في كييف حيث ولدت، نشأت إيرينا نيميروفسكي على "عبادة اللغة الفرنسية"، والخوف من الغيتو والجهل بالثقافة

اليهودية. ذكرياتها الأولى تتلخص في كرنفال نيس العام ١٩٠٦ - لأنها تعيش نصف العام على ساحل الباسك أو في "المدن المائية". شعرت باليأس من والدها الذي كان في رحلات عمل دائمة، وأهملتها أمها التي كانت "متعطشة للعشاق" دوماً، ما جعلها تكنّ لها "كراهية مقيتة"، مثلما روت ذلك في كتاب *Jézabel* [**جيزابيل**] (١٩٣٦). الشك في كونها ابنة حرام هو مفتاح روايتها الأكثر شهرة، *David Golder*. "أعتقد، كما تقول الكاتبة، أنه من هذه الطفولة الحزينة إلى حدّ ما تأتي خلفية التشاؤم في كتبي".

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، أصبح والدها العصامي، "اليهودي الصغير الغامض"، مموّلاً مقرّباً من السلطة. في شهر شباط/ فبراير ١٩١٧، تشهد إيرين "مظاهرات الخبز"، لكن ما أثارها هو "هذا الرعب الكامن خلف الحماس": في كانون الثاني/ يناير ١٩١٨، تجبر الثورة البلشفية آل نيميروفسكي على مغادرة العاصمة هرباً فوق زلاجات ليصلوا إحدى القرى الفنلندية. وهناك بدأت بكتابة أولى قصائدها وهي تقرأ الكتّاب الفرنسيين. في العام ١٩١٩، ومن مدينة ستوكهولم (السويدية) تنجح العائلة في الوصول إلى مدينة روان الفرنسية على متن عبارة، بعد أن تفادوا في طريقهم الكثير من الألغام العائمة. كان على فرنسا، هذه "الأرض الهانئة، أجمل

بلدان العالم"، أن تكون مضيافة تجاه هذه المهاجرة الشابة... فعلاً. حدث ذلك: أرسلتها حكومة فيشي إلى المعتقل النازي في أوشفيتز.

صدر لنيميروفسكي العديد من الكتب وهي على قيد الحياة، نذكر منها: *Le Bal* (١٩٢٩)، *David Golder* (١٩٣٠)، *Les Mouches d'automne* [**ذباب الخريف**] (١٩٣١)، *Films parlés* [أفلام ناطقة] (١٩٣٤)، *Le Vin de solitude* [**نبيذ العزلة**] (١٩٣٥)، *Fraternité* [إخوة] (١٩٣٧)، *Le Maître des âmes* [سيّد الأنفس] (١٩٣٩)، *Les Chiens et les Loups* [الكلاب والذئاب] (١٩٤٠).

تعود رواية **ذباب الخريف** التي نترجمها هنا، وهي رواية قصيرة (أو نوفيلا)، إلى العام ١٩٣١. إذ بعد ما عرفته روايتها السابقة *David Golder* من شهرة، قام الناشر برنار غراسيه بنشر هذا الكتاب، الذي نجد فيه الكثير من تحولات عائلتها ومصيرها أعقاب الثورة البلشفية. فتروي فيه الكاتبة انهيارات عائلة روسية هاجرت إلى باريس. رواية نلمس فيها هذا الحزن التشيخوفي (نسبة إلى تشيخوف Chekhov) من البداية إلى النهاية. لا بدّ أن يكون هذا الحزن مفهوماً، إلا عند أولئك الذين تدعوهم واقعيتهم إلى قراءة أيديولوجية للعمل، مثلما رأت صحيفة *L'Humanité* يومها في رواية *David Golder* على أنها رمز

فقط لـ"العدم في المجتمع الرأسمالي"، في حين أن النقد اليساري (في ذلك الوقت) لام الكاتبة على رؤيتها البرجوازية للثورة. في أي حال، **ذباب الخريف** هي رواية "الرعب البلشفي" من وجهة نظر كاتبتها. مثلما كانت عليها روايتها اللاحقة *L'Affaire Courilof* [قضية كوريلوف] (١٩٣٣) التي قيل عنها رواية إرهابية تساوي بين "الحكم الاستبدادي الإمبراطوري" و"البلاشفة البرجوازيين الصغار". هذه الرواية، التي فشلت فشلاً ذريعاً حين صدورها، لكنها تبدو اليوم وكأنها كانت تمهد لرواية ألبير كامو Albert Camus *Les justes* [**العادلون**].

الفصل الأول

أومأت برأسها وقالت كما في المرة السابقة:

"حسناً، وداعاً، يا يوروتشكا. اعتنِ بصحتك جيداً، يا حبيبي".

كم أنّ الوقت يمرّ بسرعة. في طفولته، عندما كان يذهب إلى الثانوية في موسكو، في الخريف، كان يأتي ليلقي عليها تحية الوداع بهذا الشكل، في هذه الغرفة عينها. كان ذلك قبل عشرة أو اثني عشر عاماً...

نظرت إلى زيّ الضباط الذي يرتديه بنوع من الدهشة والفخر الحزين.

"آه، يا يوروتشكا، يا صغيري، يبدو لي ذلك وكأنه بالأمس...".

صمتت، ولوّحت بيدها تلويحة متعبة. مضى عليها إحدى وخمسين سنة وهي عند عائلة كارين. كانت مُرضعة نيقولاي أليكسندروفيتش، والد يوري، وقد ربّت إخوتَه وأخواته من بعده، وأطفاله... لا تزال تتذكر أليكسندر كيريلوفيتش، الذي قُتل في الحرب التركية العام ١٨٧٧، كان ذلك من تسعة وثلاثين عاماً. والآن جاء دور

الصغيرَين، سيريل ويوري، لكي يغادرا إلى الحرب أيضاً.

تنهدت، ورسمت شارة الصليب على جبهة يوري.

– اذهب، ليحمك الله، يا عزيزي.

– نعم، أجل، يا عجوزي...

ابتسم ابتسامة ساخرة وخانعة. كان وجهه أشبه بوجوه الفلاحين، سميكاً ونضراً. لا يشبه أحداً آخر من آل كارين. أمسك بيديه يدَي المرأة العجوز، القاسيتين مثل جذع شجرة، السوداويتين تقريباً، وهمّ بأن يقربهما من شفتيه.

احمرت خجلاً، وسحبتهما بسرعة.

"أأنت مجنون؟ أتظن أنني سيدة شابة جميلة؟ اذهب الآن يا يوروتشكا، انزل... لا يزالون يرقصون في الأسفل".

"الوداع يا نيانيوشكا، تاتيانا إيفانوفنا"، قال بصوت متشدّق ذي نبرة ساخرة وشبه نائمة، "الوداع، سأحمل لكِ معي من برلين شالاً حريرياً، هذا إن عدت، وقد يفاجئني الأمر، لكن بالانتظار، سأرسل لك من موسكو قطعة قماش من أجل السنة الجديدة".

حاولت جاهدة أن تبتسم، لتشدّ على فمها أكثر، بقي رفيعاً، إلا أنه انكمش وانسحب إلى الداخل، كما لو أنها شفطته بفكيها القديمين. كانت امرأة في السبعين من عمرها، ذات شكل هشّ، قصيرة القامة، وذات وجه

حيوي وباسم. أحياناً، لا تزال نظرتها ثاقبة، وفي لحظات أخرى، تعبة ومطمئنة. هزت رأسها.

– إنك تعد بأشياء كثيرة، وشقيقك مثلك. لكنكما سوف تنسياني هناك. في أيّ حال، لتكن مشيئة الله فقط في أن ينتهي كلّ شيء بسرعة، وبأن ترجعا أنتما الاثنان. هل سوف تنتهي هذه اللعنة سريعاً؟

– بالتأكيد. سريعاً وبشكل سيّئ.

"ليس عليك أن تمزح بهذه الطريقة"، قالت بنشاط. "كلّ شيء بين يدي الله".

تركَتْه، لتنحني على ركبتيها أمام الحقيبة المفتوحة.

– يمكنك أن تقول إلى بلاتوشا وإلى بيوتر بأن يصعدا للبحث عن الأوراق حين يرغبان. كلّ شيء صار جاهزاً. الفراء في الأسفل وكذلك البُسُط. متى تنطلقان؟ إنه منتصف الليل.

– إن وصلنا في الصباح إلى موسكو، فالوقت كافٍ. ينطلق القطار غداً عند الحادية عشرة.

تنهدت، أومأت برأسها إيماءتها المألوفة.

"آه، أيّها الرب يسوع، يا له من عيد ميلاد حزين".

في الطابق السفلي، كان أحدهم يعزف على البيانو بسرعة وخفّة. يمكن سماع خطى الراقصين على أرضيات الباركيه القديمة وصوت المهماز.

لوّح يوري بيده:

– وداعا، أنا ذاهب، نيانيوشكا.

– اذهب، يا قلبي.

بقيت وحدها. كانت تطوي الملابس، وتغمغم: "الأحذية... أجزاء العِدّة القديمة... لا يزال من الممكن استخدامها في الميدان... ألم أنسَ شيئاً؟ المعاطف في الأسفل...".

هكذا، قبل تسعة وثلاثين عاماً، عندما غادر أليكسندر كيريلوفيتش، كانت قد حزمت البدلات العسكرية، لا تزال تذكر جيداً، يا إلهي. كانت الخادمة العجوز، أغافيا، لا تزال من هذا العالم. كانت هي نفسها صغيرة، لذا، أغمضت عينيها، وتنهدت بعمق، ونهضت بشدة.

"أود أن أعرف أين هما هذا الكلبان، بلاتوشكا وبيكتا"، قالت متذمرة. "سيغفر لي ربي. إنهم جميعاً في حالة سكر اليوم". التقطت الشال المتساقط، وغطت شعرها وفمها، ونزلت إلى أسفل. تمّ بناء شقة الأطفال في الجزء القديم من المنزل. كان مسكناً رائعاً، ذا هندسة معمارية نبيلة، مع زخارف يونانية كبيرة مزينة بالأعمدة؛ امتدت الحديقة إلى بلدية سوخاريفو المجاورة. منذ إحدى وخمسين سنة، لم تغادر تاتيانا إيفانوفنا هذا المكان قطّ. هي وحدها من تعرف كلّ خزائنه، أقبيته، والغرف المظلمة المهجورة في الطابق

الأرضي، والتي كانت ذات يوم غرفاً للاحتفالات، التي مرّت فيها أجيال وأجيال.

اجتازت الصالة بسرعة. لاحظها سيريل، فنداها ضاحكاً:

"حسنا، يا تاتيانا إيفانوفنا؟ سيرحل أعزاؤك؟".

قطبّت حاجبيها وابتسمت في الوقت عينه.

"اذهب، اذهب، لن يسيئك ذلك، في أن تعيش القسوة قليلاً، يا كيريلوشكا".

كان هذا الشخص وأخته لولو يتمتعان بالجمال، من أصحاب العيون البراقة، والملامح القاسية والسعيدة التي كانت تتمتع بها عائلة كارين في الماضي. كانت لولو ترقص بين ذراعي ابن عمها الصغير، تشيرنيشيف، وهو طالب في المدرسة الثانوية يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً. كانت هي نفسها قد بلغت السادسة عشرة في اليوم السابق. كانت جميلة، بخديها المتوهجين المشتعلين من الرقص، وخصلاتها السوداء السميكة تتدحرج حول رأسها الصغير مثل تاج غامق.

الزمن، الزمن، هذا ما كانت تاتيانا إيفانوفنا تفكر فيه: "آه، يا إلهي، لا أحد يلاحظ كيف يختفي، وفي يوم من الأيام ترى الأطفال الصغار الذين يتخطون طول قامتك. لوليتشكا، أيضاً، هي فتاة كبيرة الآن... يا إلهي، بالأمس

قلت لأبيها: 'لا تبكِ يا كولينكا، كل شيء سيمضي، يا قلبي'. إنه رجل عجوز الآن".

كان يقف أمامها مع هيلين فاسيليفنا. رآها، ارتعش، غمغم:

– أحقّاً يا تاتيانوشكا؟ هل الخيول جاهزة؟

– نعم، حان الوقت، نيقولاي أليكسندروفيتش. سأضع الحقائب في الزلاجة.

خفض رأسه، وعضّ شفتيه الطويلتين الشاحبتين برفق. "أحقّاً يا إلهي؟ حسناً... ماذا تريدين؟ اذهبي، اذهبي".

التفت إلى زوجته مبتسماً ابتسامة ضعيفة، وقال بصوت هادئ ومرهق، مثل العادة:

"سينمو الأطفال، وسيقلق كبار السن، أليس كذلك يا نيللي؟ تعالي يا عزيزتي، أعتقد أن الوقت قد حان".

نظرا إلى بعضهما من دون أن يقولا أي شيء. ألقت بعصبية وشاح الدانتيل الأسود على رقبتها الطويلة المرنة، التي تشكل الجمال الوحيد الذي بقي على حاله منذ شبابها، بعينيها الخضراوين، اللامعتين مثل الماء.

"إني ذاهبة معك، يا تاتيانا".

"ما نفع ذلك؟" قالت المرأة العجوز وهي ترفع كتفيها، "ستصابين بالبرد فقط".

"لا بأس بذلك"، تمتمت قائلة بانعدام صبر.

لحقت بها تاتيانا إيفانوفنا بصمت. اجتازتا الممرّ المسقوف الصغير المهجور. في الماضي، عندما كانت هيلين فاسيليفنا تُدعى الكونتيسة إليتزكايا، وحين كانت تأتي للانضمام إلى نيقولاي كارين في ليالي الصيف، في الجناح الواقع عند نهاية المتنزّه، كانا يعبران هذا الباب الصغير للدخول إلى البيت الذي يغط في نومه... هنا، كانت تلتقي أحياناً، في الصباح، بتاتيانا العجوز. ما زالت تراها تختفي عن طريقها وترسم شارة الصليب. بدا الأمر قديماً وبعيداً، مثل حلم غريب. عندما ماتت إليتزكي، تزوجت من آل كارين. في البداية غالباً ما أزعجها عداء تاتيانا إيفانوفنا وآلمها، كانت صغيرة. اليوم اختلف الوضع. يحدث لها أن تراقب بنوع من اللذة السخرية والحزينة، نظرات المرأة العجوز، حركاتها في الارتداد والتواضع، كأنها لا تزال تلك الخاطئة الزانية الراكضة إلى موعدها، تحت أشجار الزيزفون العتيقة. ذلك، على الأقل، ما بقي من شبابها.

سألتها بصوت عالٍ:

– ألم تنسي شيئا؟

– أبداً، يا هيلينا فاسيليفنا.

– الثلج قويّ جداً. أضيفي بعض الأغطية على الزلاجات.

– كوني مطمئنة.

دفعتا باب الفناء، الذي فُتح بصعوبة مُصدراً صريراً وسط الثلوج الكثيفة. كانت الليلة الجليدية مليئة برائحة أشجار التنوب المتجمدة والدخان البعيد. ربطت تاتيانا إيفانوفنا شالها تحت ذقنها وركضت إلى الزلاجة. كانت منتصبة ولا تزال مفعمة بالحيوية، كما كانت تبحث في الحديقة عند الغسق عن الطفلين سيريل ويوري. أغلقت هيلين فاسيليفنا عينيها للحظة، ورأت ابنيها مرة أخرى، وجهيهما، وألعابهما. سيريل، المفضل عندها، كان وسيماً جداً، وسعيداً جداً. كانت ترتجف في حضوره أكثر مما ترتجف ليوري. لقد أحبتهما بشغف، لكن سيريل... آه، من الخطيئة أن تفكر في ذلك. "يا إلهي، احفظهما، احفظهما، امنحنا أن نتقدم في السن، محاطين بجميع أطفالنا استمع لي يا رب. كان كل شيء في يد الله!"، قالت تاتيانا إيفانوفنا.

صعدت تاتيانا إيفانوفنا درجات السلم إلى الشرفة، وهزت رقاقات الثلج المتشبثة بغرز شالها.

عادتا إلى غرفة المعيشة. كان البيانو صامتاً. والشباب يتحدثون فيما بينهم، بنبرة منخفضة، وهم واقفون في منتصف الغرفة.

"لقد حان الوقت، يا ولديّ"، قالت هيلين فاسيليفنا.

أشار سيريل بحركة من يده.

"حسنا، يا أماه، في الحال. كأس أخرى بعد أيها السادة".

شربوا في صحة الإمبراطور، والأسرة الإمبراطورية، والحلفاء، وتدمير ألمانيا. بعد كل نخب، كانوا يرمون الأكواب، ويلتقط الخدم الشظايا بصمت. أما الخدم الآخرون فينتظرون في الرواق.

عندما مرّ الضباط من أمامهم، كرروا جميعاً معاً، مثل درس مملّ حفظوه عن ظهر قلب:

"حسناً. وداعاً، سيريل نيكولايفيتش. وداعاً، يوري نيكولايفيتش". واحد فقط، الطباخ القديم أنتيب، ما زال مخموراً وحزيناً، رفع رأسه الرمادي الكبير على كتفه وأضاف بشكل آلي بصوت عالٍ أجش:

"ليحفظكما الله بصحة جيدة".

"لقد تغير الزمن"، تذمرت تاتيانا إيفانوفنا. رحيل آل بارين، في الماضي... لقد تغير الزمن، وكذلك تغير الناس".

تبعت سيريل ويوري إلى الشرفة. كان الثلج يتساقط بسرعة. رفع الأتباع فوانيسهم المضيئة، وأضاؤوا التماثيل على عتبة الزقاق، ووجهين رخامين يتلألآن بالجليد والصقيع، والمتنزه القديم المتجمد الذي لا يتحرك.

للمرة الأخيرة، رسمت تاتيانا إيفانوفنا شارة الصليب فوق الزلاجة والطريق، فنادى عليها الشّابّان وضحكا بخدودهما المشتعلة، التي كانت تحترق بفعل ريح الليل. "هيا، وداعاً، كوني بخير، أيتها السيدة العجوز، سنعود، لا تخافي...". أمسك السائق بزمام الأمور، وأطلق نوعاً من صرخة، وصافرة حادة وغريبة، فانطلقت الخيول. وضع أحد الأتباع الفانوس على الأرض، وتثاءب.

"هل ستبقين هنا، يا جدتي؟".

لم تُجب المرأة العجوز. لقد ذهبوا بعيداً. رأت الأضواء على الشرفة وفي الدهليز تنطفئ، ضوءاً تلو الآخر. في المنزل، عاد نيقولاي أليكسندروفيتش وضيوفه إلى مقاعدهم حول طاولة العشاء. أخذ نيقولاي أليكسندروفيتش بشكل زجاجة شمبانيا من يد الخادم.

"لماذا لا تشربون؟"، تمتم بجهد، "يجب أن تشربوا".

ملأ الكؤوس الممدودة بحذر. كانت أصابعه ترتجف قليلاً. اقترب منه رجلٌ سمين بشوارب مصبوغة، الجنرال سيدوف، وهمس في أذنه:

"لا تقلق يا عزيزي. لقد تحدثت إلى سموّه. سوف يحرسهم، اطمئنّ".

هز نيقولاي أليكسندروفيتش كتفيه بلطف. لقد ذهب هو أيضاً إلى سانت بطرسبرغ، وقد حصل على رسائل

ومستمعين. لقد تحدث إلى الدوق الأكبر. كما لو كان بإمكانه منع الرصاص ومرض الزّحار. "عندما يكبر الأطفال، لن يعود هناك شيء نفعله سوى طي أذرعنا وترك الحياة تأخذ مجراها. لكننا ما زلنا مضطربين، باختصار، يتخيل المرء، كلمتي... أنا أتقدم في السن"، فكر فجأة، "عجوز وجبان. الحرب؟ يا إلهي هل كان بإمكاني أن أحلم بمصير أفضل وأنا في العشرين؟".

قال جهراً:

"شكرا لك، ميخائيل ميخائيلوفيتش. ماذا تريد؟ سيفعلون مثل الآخرين. الله فقط يعطينا النصر".

وكرر الجنرال العجوز بحماسة: "إنها مشيئة الله!". صمت الآخرون، الشباب، الذين كانوا في المقدمة. فتح أحدهم البيانو بشكل آلي، وضرب بعض النوتات.

"ارقصوا، يا أولادي"، قال نيقولاي أليكسندروفيتش. عاد وجلس خلف طاولة البريدج، وأشار إلى زوجته.

"عليكِ أن تذهبي وترتاحي، يا نيللي، انظري كم أنت شاحبة".

"أنتَ أيضاً"، قالت بصوت خفيض.

تصافحِا بصمت. خرجت هيلينا فاسيليفنا، وأخذ كارين العجوز ورقَ الشدة وبدأ باللعب، ليعذّب بين الحين والآخر، فيما يفكر، شموع الشمعدان الفضية.

الفصل الثاني

لبعض الوقت أيضاً، استمعت تاتيانا إيفانوفنا إلى صوت أجراس تنطلق بعيداً. فكرت: "يسيرون بسرعة". ظلّت واقفة في منتصف الممر، ممسكةً شالها بكلتا يديها. دخل الثلج الجاف والخفيف إلى عينيها مثل البودرة. ارتفع القمر، وحفرت مسارات المزلجة عميقاً في الأرض المتجمدة، متلألئة بالنار الزرقاء. تحولت الرياح، وعلى الفور بدأ الثلج يتساقط بقوة. توقف رنين الأجراس الخافت، صرخت أشجار التنوب المليئة بالجليد في الصمت مع تأوه الجهد البشري الباهت.

عادت المرأة العجوز ببطء باتجاه المنزل. فكرت في سيريل ويوري بنوع من الدهشة المؤلمة. الحرب. تخيلت بشكل غامض حقلاً وخيولاً تجري، وقذائف تنفجر مثل القرون الناضجة. كما في صورة، لمحة... أين؟ كتاب مدرسي، بلا شك، قد لوّنه الأطفال... أي أطفال؟ هؤلاء، أم نيقولاي أليكسندروفيتش وإخوته؟... أحياناً، عندما تشعر بالتعب، مثل هذه الليلة، تشعر بالتشوش في ذاكرتها. حلم طويل مرتبك... ألم تستيقظ كما في السابق

على صرخات كولينكا في الغرفة القديمة؟

واحد وخمسون عاماً. في ذلك الوقت، كان لديها أيضاً زوج، وطفل. ماتا كلاهما. منذ فترة طويلة وهي تتذكر بصعوبة ملامحهما، أحياناً... نعم، كل شيء يعبر، كل شيء في يد الله.

صعدت إلى الطابق العلوي لتصل إلى أندريه الصغير، أصغر أطفال عائلة كارين الذي في رعايتها. كان لا يزال نائماً إلى جانبها، في غرفة الزاوية الكبيرة التي عاش فيها نيقولاي أليكسندروفيتش، ومن بعده إخوته وأخواته. كل هؤلاء ماتوا أو رحلوا بعيداً. بدت الغرفة كبيرة جداً، مرتفعة جداً بالنسبة للأثاث الصغير الذي بقي، وسرير تاتيانا إيفانوفنا وفراش أندريه، مع الستائر البيضاء، والأيقونة القديمة الصغيرة المعلقة بين القضبان... صندوق ألعاب، مكتب خشبي صغير عتيق، كان أبيض اللون لكن بعد مرور أربعين عاماً، فقد صقل وصبغ باللون الرمادي الناعم مثل الورنيش، أربع نوافذ عارية، وباركيه أحمر قديم... فيضان من الضوء والهواء. عندما جاء الليل والصمت الغريب، قالت تاتيانا إيفانوفنا: "حان الوقت الآن ليأتي الآخرون...".

أشعلت شمعة، أضاءت بشكل خافت السقف المطلي بالملائكة ذات الوجوه الشريرة الكبيرة، ووضعت مخروطاً

من الورق المقوى على اللهب، اقتربت من أندريه. إنه ينام بشكل عميق، ورأسه الذهبي غارق في الوسادة. لمست جبهته ويديه الصغيرتين المفتوحتين على الملاءة، ثم جلست إلى جانبه في مكانها المعتاد. خلال الليل، تبقى على هذه الحال لساعات كاملة، نصف مستيقظة، وهي تحيك، متثاقلة من حرارة الموقد، تفكر في الماضي وفي ذلك اليوم الذي سوف يتزوج فيه سيريل ويوري، وحين سينام هنا أطفالٌ صغار جدد. قريباً سيغادر أندريه.

في سن السادسة، ينزل الصبيان إلى الطابق السفلي للعيش مع المعلمين والمربيات. لكن الغرفة القديمة لم تبقَ قطّ فارغة لفترة طويلة. سيريل؟ أو يوري؟ أو لولو، ربما؟ تنظر إلى الشمعة التي تذوب وهي تتأرجح بصخب قوي ورتيب في الصمت، تحرك يدها بهدوء، كمن يهزّ مهداً، وتهمس: "سأرى المزيد إن شاء الله".

قرع أحدهم على الباب. نهضت، وقالت بصوت خفيض:

– أهذا أنت، يا نيقولاي أليكسندروفيتش؟

– نعم، يا نيانيوشكا.

– ادخل ببطء، لا توقظ الصغير.

دخل، أمسك بكرسي، ووضعها بحذر بالقرب من المدفأة.

"هل تشعر بالتعب؟ أتريد بعض الشاي؟ سأسخن المياه بسرعة". أوقفَها.

"لا. اتركي كل شيء. لست بحاجة إلى أي شيء".

لمت عن الأرض قطعة النسيج التي كانت تحيكها، جلست من جديد، هزت بسرعة صنارتها اللامعة.

"مضى وقت طويل لم تأتِ فيه لزيارتنا".

لم يُجب بشيء، قرب يديه من المدفأة التي تشخر.

"هل تشعرُ بالبرد، يا نيقولاي أليكسندروفيتش؟".

وضع ذراعيه على صدره وهو يحس برعشة خفيفة. قالت متسائلة كما في الماضي:

- هل تشعر بالألم مرة جديدة؟

- لا، يا عجوزي.

هزت رأسها والحزن يرسم ملامحه على وجهها، سكتت.

تطلع نيقولاي أليكسندروفيتش إلى سرير أندريه.

- أهو نائم؟

- أجل. هل تريد أن تراه؟

نهضت وأمسكت بالضوء، اقتربت من نيقولاي أليكسندروفيتش. لم يكن يتحرك. انحنت، ووضعت يدها بسرعة على الكتف:

- نيقولاي أليكسندروفيتش.... كولينكا...

- اتركيني وشأني.

استدارت بصمت.

من الأفضل ألا تقول أي كلمة. فأمام من يمكنه أن يترك دموعه تنساب بحرية، إن لم يكن أمامها؟ هيلين فاسيليفنا بنفسها. لكن من الأفضل أن لا تقول شيئاً. تراجعت بهدوء في الظل، وقالت بصوت خفيض:

"انتظرني، سأعد القليل من الشاي، سيُشعرنا بالدفء نحن الاثنين".

حين عادت بدا كأنه قد هدأ. أدار بشكل آلي قبضة المدفأة، حيث كان الجص ينساب بضجة خفيفة من الرمال.

"اسمعي يا تاتيانا". قال وهو يشير إلى صرصور يزحف على الأرض: "انظري، تاتيانا، كم مرة طلبت منك أن تلصقي هذه الثقوب؟ انظري إنه يخرج من هناك. هل تعتقدين أن هذا أمرٌ صحّي في غرفة أطفال؟".

قالت تاتيانا إيفانوفنا وهي تهز كتفيها: "أنت تعلم جيداً أنها علامة على رخاء المنزل. شكرا يا الله، لقد وجد منها دائماً هنا، وقد تلقيت تربيتك هنا وغيرك قبلك". ووضعت كوب الشاي الذي أحضرته بين يديه، وحرّكت الملعقة.

"اشرب ما دام ساخناً. هل السكر كافٍ؟".

لم يُجب، ابتلع جرعة والتعب يظهر عليه كأنه غائب

عن الوجود، لكنه وقف فجأة.

– هيا، لأذهب، مساؤك سعيد، قومي بتصليح المدفأة، أتسمعين؟

– إن أردت ذلك.

– أنيري لي الطريق.

أمسكت بالشمعة، ذهبت معه لغاية الباب، وسبقته في نزول درجات العتبة الثلاث حيث الطوب الأحمر، غير المحكم، يهتز ويميل إلى جانب واحد، كما لو أن شيئاً يسحبه بثقل نحو الأرض.

– انتبه... هل ستخلد إلى النوم، الآن؟

– أنام... أنا حزين، يا تاتيانا، روحي حزينة...

– ليحمهما الله، يا نيقولاي أليكسندروفيتش. يموت المرء في سريره. والله يحمي المسيحيين بين الرصاص.

– أعرف، أعرف...

– عليكَ أن تثق بالله.

– أعرف (ردد قوله). لكنْ ثمة أمر آخر أيضاً.

– وما هو إذاً يا بارين؟

– كل شيء يجري بشكل سيئ، يا تاتيانا، لا يمكنك أن تفهمي ذلك.

هزّت رأسها.

– البارحة، تمّ أخذ، ابن ابنة أخي من سوخاريفو،

أيضاً إلى هذه الحرب اللعينة. لا يوجد رجل آخر غيره في العائلة، حيث قتل الأكبر في يوم العنصرة. لا تزال هناك امرأة وفتاة صغيرة من عمر أندريه. وكيف نزرع الحقل؟... لكل فرد نصيبه من البؤس.

– أجل، إنه زمن صعب، مشيئة الله...

توقف وقال فجأة:

– لأرحل. مساء الخير، تاتيانا.

– مساء الخير نيقولاي أليكسندروفيتش.

انتظرت حتى اجتاز غرفة المعيشة وبقيت بلا حراك، تستمع إلى صرير الأرض تحت قدميه. فتحت النافذة الصغيرة المقتطعة من الزجاج. هبّت رياح جليدية بعنف رافعة شالها وخصلات شعرها الفضفاضة. ابتسمت العجوز وأغمضت عينيها. ولدت في ريف بعيد عن آل كارين، في شمال روسيا، ولم يكن هناك ما يكفيها من الجليد والرياح. قالت: "في منزلنا، اعتدنا كسرَ الجليد بأقدامنا الحافية في الربيع، وسأفعل ذلك مرة أخرى".

أغلقت النافذة الصغيرة المربعة. لا صوت بعد لصفير الريح. لم يبقَ سوى الضجيج الخافت من الجص المتدفق في الجدران القديمة، مع همس الساعة الرملية، والتشقق الباهت والعميق للأعمال الخشبية القديمة التي تقضمها الفئران.

عادت تاتيانا إيفانوفنا إلى غرفتها، صلّت لفترة طويلة وخلعت ملابسها. كان الوقت قد تأخر. أطفأت الشمعة، وتنهدت، ثمّ قالت عدّة مرات بصوت عالٍ في صمت: "يا إلهي، يا إلهي..."، ونامت.

الفصل الثالث

حين أغلقت تاتيانا إيفانوفنا أبواب البيت الفارغ، صعدت إلى شرفة المراقبة الصغيرة المثبتة على السطح. كانت ليلة صامتة من شهر أيار، دافئة ومعتدلة بالفعل. كانت سوخاريفو تحترق. يمكن رؤية ألسنة اللهب تأتلق بوضوح، ويمكنك سماع صرخات بعيدة تحملها الرياح.

كانت عائلة كارين قد هربت في شهر كانون الثاني من عام ١٩١٨، أي قبل خمسة أشهر، وفي كل يوم منذ ذلك الحين، كانت تاتيانا إيفانوفنا ترى قُرى تشتعل في الأفق، تنطفئ، ثم تشتعل من جديد، أثناء مرورها من الأحمر إلى الأبيض قبل العودة إلى الأحمر. لكن مرّةً لم تكن النار قريبة مثل هذه الليلة. أضاء انعكاس ألسنة اللهب الحديقة المهجورة بوضوح شديد فترى شجيرات الليلك في الممر الرئيسي، وهي تتفتح في اليوم السابق. كذلك، الطيور التي خدعها النور طارت كما لو كانت في وضح النهار... نبحت الكلاب. ثم تحولت الريح حاملةً معها صوت النار ورائحته. أصبحت الحديقة القديمة المهجورة هادئة ومظلمة مرة أخرى، ورائحة الليلك ملأت الهواء.

انتظرت تاتيانا إيفانوفنا بعض الوقت، ثم تنهدت، ونزلت الدرجات. في الطابق السفلي، أزيل السجاد والستائر. كانت النوافذ ممسمرة بألواح خشبية ومحمية بقضبان حديدية. كانت الأواني الفضيّة موضبة في أسفل الصناديق، في الأقبية؛ وقد دفنت الخزف الثمين في الجزء القديم المهجور من البستان. ساعدها بعض الفلاحين: لقد تخيّلوا أن كل هذه الثروة ستعود إليهم فيما بعد. لم يعد البشر، الآن، يهتمون بخير جارهم إلا من الاستيلاء عليه. لن تقول أي شيء للمفوضين في موسكو، ولاحقاً، سنرى ما يمكن القيام به... من دونهم، علاوة على ذلك، لم تكن لتتمكن من فعل أي شيء. كانت بمفردها، وقد غادر الخدم منذ فترة طويلة. وظلّ الطباخ أنتيب، الأخير، معها حتى شهر آذار، لغاية أن توفي. كان لديه مفتاح القبو، ولم يطلب أي شيء آخر. كان يقول: "أنتِ مخطئة إن لم تشربي الخمر يا تاتيانا، فهذا يريح كلّ الشقاء. انظري، نحن وحدنا، تُركنا مثل الكلاب، ها أنا أبصق على كل شيء، لا أهمية لأي شيء ما دام لديّ نبيذ".

لكنها لم تحبّ أن تشرب قطّ. في إحدى الأمسيات، خلال العواصف الأخيرة في شهر آذار، كانا يجلسان في المطبخ، بدأ يتجول، متذكراً حين كان جندياً. "إنهم ليسوا أغبياء، الصغار، بثورتهم... لكل واحد دوره...

لقد شربوا ما يكفي من دمائنا، الخنازير القذرة، آل بارين الملعونون...". لم تُجب. ما الفائدة؟ لقد هدد بإحراق المنزل، لبيع المجوهرات والأيقونات المخفية. لقد كان يهذي لبعض الوقت على هذه الحال، وفجأة أطلق نوعاً من صرخة حزينة، نادى: "أليكسندر كيريلوفيتش، لماذا تركتنا، بارين؟". خرج من شفتيه سيل من القيء والدم الأسود والكحول. احتضر حتى الصباح ومات.

ربطت تاتيانا إيفانوفنا السلاسل الحديدية بأبواب غرفة المعيشة، وخرجت إلى الشرفة من خلال مدخل النفق المخفي، الأصغر. كانت التماثيل لا تزال موجودة في صناديق الألواح الخشبية؛ أغلق عليها في شهر أيلول من عام ١٩١٦ وتُركت هناك. نظرت إلى المنزل. اغمقّ لون الحجر الأصفر الرقيق بسبب ذوبان الثلج؛ تحت أوراق الأقنثة، يتقشر الجص، وتظهر علامات بيضاء مثل علامات الرصاص. تحطمت نوافذ غرفة تدفئة البرتقال بفعل الرياح. "إذا رأى نيقولاي أليكسندروفيتش هذا"...

قامت ببعض الخطوات في الممر وتوقفت، ووضعت يديها على قلبها. كان هيئة رجل يقف قبالتها. حدقت للحظة، من دون أن تدرك ذلك، في ذلك الوجه الشاحب، المنهك تحت قبعة جندي، ثم قالت بصوت مرتجف:

"أهذا أنت؟ أهو أنت يا يوروتشكا؟".

"نعم، أنا"، قال بلهجة غريبة، مترددة وباردة. "هل تريدين أن تخبئيني هذه الليلة؟".

"كن مطمئنا"، قالت مثلما كانت تقول في الماضي. دخلا إلى المنزل، إلى المطبخ القاحل، أشعلت شمعداناً، أضاء وجه يوري.

"كم تغيرت، يا إلهي! هل أنت مريض؟".

"أصبت بالتيفوئيد"، قال بصوت بطيء، مبحوح وأجش، "وكنت مريضاً مثل كلب، وقريباً جداً من هنا، في تيمنايا... لكنني كنت أخشى أن أخبرك عن مكاني. أنا مهدد بالاعتقال ومعرض لعقوبة الإعدام"، أنهى كلامه بالطريقة عينها، الرتيبة والباردة. "أودّ أن أشرب"...

وضعَت أمامه الماء وركعت لتفك عقدة الفوط المتسخة والمدماة التي كانت تلف قدميه.

"لقد سرتُ لفترة طويلة"، قال.

رفعت رأسها وسألته:

"لماذا قدمت؟ الفلاحون حمقى هنا".

"آه، الأمر عينه في كل مكان. عندما خرجت من السجن، غادر والداي إلى أوديسا. أين الذهاب؟ يأتي الناس ويذهبون، بعضهم باتجاه الشمال، والبعض الآخر نحو الجنوب...". هزّ كتفيه، وقال بلا مبالاة: "إنّه الأمر عينه في كل مكان".

"كنت في السجن؟" تمتمت وهي تضع يداً فوق الأخرى.

- ستة أشهر.

- السبب؟

- وحده الشيطان يعرف ذلك.

صمت، وبقي ثابتاً بلا حراك، لينهي حديثه بجهد كبير:

- لقد غادرت موسكو... ذات يوم، ركبت قطار الإسعاف، وقد أخفاني الممرضون. كان لا يزال لديّ بعض المال. سافرت معهم لمدة عشرة أيام، من ثم مشيت. التقطت التيفوئيد. سقطت في حقل بالقرب من تيمنايا. لمّني أناس هناك. بقيت عندهم لبعض الوقت، لكن وبما أن الحُمر كانوا يقتربون، شعروا بالخوف، فغادرت.

- أين سيريل؟

- كان في السجن معي. لكنه تمكن من الفرار، وانضم إلى الوالدين في أوديسا، أرسلوا لي رسالة عندما كنت لا أزال في السجن... عندما خرجت، كانوا قد رحلوا قبل ثلاثة أسابيع. لم أعرف الحظ يوماً يا عجوزتي نيانيوشكا (قال بنبرته الساخرة والخانعة). حتى في السجن، كانت سيريل في زنزانةِ شابّةٍ جميلة، ممثّلة فرنسية، وأنا مع يهودي عجوز.

ضحك ثم توقف وكأنه تفاجأ من نفسه من جراء لهجة الباهتة والمكسورة. وضع خده على يده وتنهد:

"أنا سعيد لكوني في المنزل، يا نيانيوشكا"، وفجأة نام.

نام لبضع ساعات، ومن دون أن تتحرك جلست أمامه تنظر إليه. تدفقت الدموع بصمت على وجهها الشاحب الباهت. أيقظته بعد وقت، وأخذته إلى الأولاد، ووضعته في الفراش. كان يعاني من هذيان خفيف. تحدث بصوت عالٍ، بينما كان يلمس، بالدور، الفراغ بين قضبان سرير أندريه، حيث كانت الأيقونة معلقة، والتقويم على الحائط، الذي لا يزال مزيناً بصورة ملونة للقيصر، كما زمن طفولته. وأشار إلى الورقة التي تحمل تاريخ ١٨ أيار ١٩١٨، مكرراً: "لا أفهم، لا أفهم...".

ثم نظر بابتسامة إلى الستارة المتمايلة بلطف، المتنزّه، الأشجار المقمرة، والمربع المجاور للنافذة، حيث شكلت أرضية الباركيه القديمة انخفاضاً طفيفاً، ملأه ضوء القمر الخافت وحرّكه، ليتمايل مثل بركة حليب. كم مرة قام، حين ينام شقيقه، ليبقى جالساً على الأرض، يستمع إلى موسيقا الأكورديون التي يعزفها السائق، وضحكات الخدم المخنوقة. كانت رائحة الليلك قوية مثل هذه الليلة. راقب قسراً ضجيج الأكورديون في الصمت. لكن، فقط،

قعقعة منخفضة وناعمة كانت تجتاح الهواء في بعض الأحيان. استقام ولمس كتف تاتيانا إيفانوفنا، التي كانت تجلس إلى جانبه في الظلّ.

– ما هذا؟

– لا أعرف. نسمع صوته منذ البارحة. ربما الرعد، ربما رعد شهر أيار.

"هذا؟"، قال. ضحك بشكل مفاجئ، محدّقاً فيها بعينين واسعتين شاحبتين بسبب الحمى والمحترقة بنوع من الضوء القاسي: "إنه المدفع، يا سيدتي العجوز! هذا ما قلته لنفسي... كان جميلاً جداً".

كان يتفوه بكلمات مبهمة، ممزوجة بالضحك، ثم قال بشكل واضح:

"الموت بطمأنينة في هذا السرير، أنا متعب"...

خفت الحمّى عند الصباح. أراد أن ينهض، ويخرج إلى الحديقة، ويتنفس هواء الربيع، دافئاً ونقياً، كما كان من قبل. هذا الشيء الوحيد الذي لم يتغير. الحديقة المهجورة، المليئة بالعشب البري، بدت بائسة وحزينة. دخل الجناح الصغير، واستلقى على الأرض، ولعب بشكل آلي مع شظايا ألواح النوافذ المطلية، ناظراً إلى المنزل من خلالها. ذات ليلة في السجن، بينما كان ينتظر إعدامه يومياً، رأى، في المنام، المنزل كما بدا له اليوم،

من نوافذ الجناح الصغير، ولكنه كان مفتوحاً، ومصاطب الزهور مليئة. لقد لاحظ في نومه حتى دوس اليمام على السطح. استيقظ مرتجفاً وفكّر: "غداً الموت، هذا مؤكد. قبل الموت فقط، يمكننا أن نتذكر بهذه الطريقة".

الموت. لم يكن خائفاً منه. لكن ليذهب بعيداً في اضطرابات هذه الثورة، لينساه الجميع، ليتخلّوا عنه. إنه أحمق، هذا كل شيء. حسناً، لم يمت بعد... من يدري؟ ربما قد ينجو. هذا المنزل، كان يظن أنه لن يراه مرة أخرى، وها هو هنا في مكانه، وهذه القطع من ألواح النوافذ المطلية التي كانت تهب عليها الرياح دائماً ويلعب بها عندما كان طفلاً ويتخيل تلال إيطاليا... بلا شك بسبب لونها الأرجواني الشبيه بالدم والنبيذ الأسود... جاءت تاتيانا إيفانوفنا وقالت: "والدتك تناديك، يا قلبي".

دخلت تاتيانا إيفانوفنا حاملة بيدها صحناً فيه بعض حبّات البطاطا والخبز.

– كيف تتدبرين أمرك من أجل الطعام؟

– عندما نصل إلى هذا العمر، لا نعد بحاجة إلى أشياء كثيرة. لدي بطاطا بشكل دائم، وفي القرية، أحياناً، نجد الخبز. لم ينقصني أي شيء.

ركعت بالقرب منه، ناولته ليأكل ويشرب كما لو أنه

ضعيف جدا ليتمكن من حمل الطعام إلى شفتيه.

"يوري... ماذا لو رحلت الآن؟".

عبس بحاجبيه، نظر إليها من دون أن يجيب. قالت له:

- يمكنك المشي لغاية منزل ابن أخي، لن يؤذيك: إذا كان لديك المال، فسيساعدك في العثور على خيل ويمكنك عندها أن تذهب إلى أوديسا. أهي بعيدة؟

- ثلاثة، أو أربعة أيام عن طريق السكة الحديد، في الأوقات العادية. أمّا اليوم، فالله يعلم.

- ما العمل؟ ليساعدك الله. يمكنك اللحاق بوالديك ومنحهما هذا.

ثمّ قالت، مشيرة إلى حافة فستانها:

"هذا هو الماس من عقد والدتك الكبير. قبل مغادرتها قالت لي أن أخفيه. لم يتمكنوا من أخذ أي شيء معهم، وغادروا في الليلة التي استولى فيها الحُمر على تيمانيا، كانوا خائفين من الاعتقال... كيف يعيشون الآن؟".

"بشكل سيّئ"، قال وهو يرفع كتفيه بتعب: "حسناً، سنرى غدا. لكن، ماذا، إنك تتوهمين، الأمر مشابه في كل مكان، وهنا، على الأقل، يعرفني الفلاحون، لم أسِئ إليهم يوماً".

"من يعرف ماذا هناك في نفوسهم؟ الكلاب"، تمتمت بالكلام.

"غداً، غداً"، ردد قائلاً وهو يغلق عينيه. "سنرى غداً. الطقس جميل جدّاً، يا إلهي".

هكذا مرّ اليوم. عند المساء، عاد. كان شفقاً جميلاً وهادئاً مثل شفق اليوم السابق. قام بالالتفاف، مشى على طول بركة المياه. في الخريف جُردت الشجيرات المجاورة لها من أوراقها، وظلت مغطاة بطبقة سميكة من الأوراق الميتة، التي بقيت تحت الجليد. كانت أزهار الليلك تتساقط مثل مطر خفيف؛ بالكاد يمكنك رؤية المياه السوداء، في الأماكن، التي كانت متلألئة بشكل خافت.

عاد إلى المنزل، صعد إلى غرفة الأطفال. كانت تاتيانا إيفانوفنا قد وضعت الغطاء أمام النافذة المفتوحة؛ تعرّف إلى أحد مفارش المائدة الصغيرة المصنوعة من الكتّان الفاخر المحجوز تحديداً للأطفال عندما يأكلون في غرفتهم أثناء مرضهم القصير، والشوكة، والسكين الفضي المذهل، والكوب القديم الملطخ.

"كل، اشرب، يا قلبي. جئتك بزجاجة نبيذ من الكهف، في الماضي، كنت تحب البطاطا مشوية تحت الرماد".

"لم أتذوقها منذ ذلك الحين"، قال ضاحكاً. "شكراً لك في أي حال، سيدتي العجوز".

حلّ الليل. أضاء شمعة، وضعها على زاوية من الطاولة.

اشتعلت الشعلة بشكل مستقيم وشفاف في الليل الهادئ. يا له من صمت. سأل:

– نيانيوشكا؟ لِمَ لم تلحقي والديّ؟

– يجب أن يبقى أحد كي يحرس المنزل؟

– أتظنين ذلك؟ (قال بنوع من السخرية الكئيبة). ولمن يا ربي؟

سكتا. سألها من جديد:

– ألا تريدين الذهاب واللحاق بهما؟

– سأذهب إن طلباني. سأجد طريقي؛ لم أكن يوماً شخصاً مستعاراً، ولا أحمق. شكرا يا الله. لكن ما مصير المنزل؟

توقفت عن الكلام فجأة، وقالت بصوت خفيض:

"اسمع!".

كان هناك صوت طرق على الباب، في الأسفل. نهضا معاً بسرعة.

"اختبئ، اختبئ من أجل الله، يا يوري!".

اقترب يوري من النافذة، تطلع إلى الخارج بحذر. كان القمر مرتفعاً. تعرف إلى الصبي، الواقف وسط الممر، تراجع قليلاً إلى الوراء ونادى:

"يوري نيقولايفيتش! هذا أنا، إيغنات!".

كان سائقاً شاباً نشأ في منزل كارين. لعب يوري معه

عندما كان طفلاً. كان هو من يغنّي، بمرافقة الأكورديون، في ليالي الصيف، في الحديقة. "إن كان هذا من يريد بي سوءا"، فكّر يوري، "فليذهب كل شيء الى الجحيم، وأنا معه!". انحنى من النافذة وصرخ:

– اصعدْ، أيها العجوز.

– لا أستطيعُ، الباب مقفل.

– لتنزلي وتفتحي الباب يا نيانيا، إنه وحده.

تهمس له:

"ما الذي فعلته أيها الشقي؟".

أشار بحركة ضجرة من يده.

"ليحدث ما يحدث... في أي حال، لقد رآني. هيّا، اذهبي وافتحي له الباب، يا عجوزتي".

بقيت واقفة في مكانها، من دون حراك، وهي ترتجف، صامتة. سار باتجاه الباب. أوقفته، لقد عادت الدماء فجأة إلى وجنتيها.

"ما الذي تفعله؟ ليس أنت من ينزل ليفتح الباب لسائق. انتظرني".

رفع كتفيه ببطء وعاد ليجلس. حين عادت، وإيغنات يلحق بها، نهض من مكانه، ووقف أمامهما.

"صباح الخير، أنا مسرور برؤيتك".

"أنا أيضا، يوري نيقولايفيتش"، قال الصبي وهو

يبتسم. كان وجهه وضاحاً وممتلئاً.

– هل أكلت وشبعت؟

– لقد ساعدني الله، بارين.

– أما زلت تعزف على الأكوردیون، كما في الماضي؟

– يحدث ذلك أحياناً.

– سأستمع إليك فيما بعد... سأبقى هنا لفترة.

لم يُجب إيغنات، بل بقي يبتسم، مظهراً أسنانه العريضة اللامعة.

"أتريدُ أن تشرب؟ أعطه كأساً، يا تاتيانا".

أطاعت المرأة بمرح. شرب الصبي.

"بصحّتك الطيبة، يوري نيقولايفيتش". سكتا. قالت تاتيانا إيفانوفنا:

"حسناً. لتذهب الآن. السيد بارين متعب.

– عليكَ، بكل الأحوال، أن تأتي معي على القرية، يوري نيقولايفيتش...

– آه! لماذا؟ تمتم يوري وهو يمط صوته بشكل لا إرادي، لماذا أيها العجوز؟

– يجب ذلك.

قفزت تاتيانا إيفانوفنا إلى الأمام بشكل مفاجئ، وعلى وجهها الهادئ الشاحب، رأى يوري فجأة تعبيراً شديد الوحشية، وغريباً جداً، لدرجة أنه ارتجف، وقال بنوع

من اليأس:

"دعي ذلك. اصمتي. أرجوكِ. دعي الأمر، لا بأس بذلك".

كانت تصرخ من دون أن تسمعه، ويداها الضامرتان مثل مخالب:

"لتذهب إلى الجحيم، يا بنَ الكلب! ألا تعتقد أنني أقرأ أفكارك في عينيك؟ ومن أنت لتعطي الأوامر إلى سيدك؟".

تطلع إليها بنظرة مختلفة، والشرر يتطاير من عينيه، لكنه عاد وبدا هادئاً، قائلاً بلا مبالاة:

"اسكتي يا جدتي... هناك أشخاص في القرية يرغبون في رؤية يوري نيقولايفيتش، هذا كلّ ما في الأمر".

"أتعرف ما الذي يريدونه مني، على الأقل"، سأل يوري. كان يشعر بالتعب، فجأةً، مع أمنية واحدة وصادقة في قلبه: أن ينام، ولفترة طويلة.

– للتحدث بشأن تقاسم النبيذ. تلقينا الأوامر من موسكو.

– آه! هذا هو الأمر إذاً؟ لقد أعجبك نبيذي، أرى جيداً. ولكن كان بإمكانك أن تنتظر لنهار الغد.

مشى نحو الباب وإغنات من ورائه. توقف على العتبة. بدا إغنات متردّداً لثانية، وفجأة، بالحركة نفسها التي كان

يستخدمها للإمساك بالسوط، وضع يده على حزامه، وسحب مسدس ماوزر، وأطلق رصاصتين. أصابت الأولى يوري بين كتفيه. أطلق صرخة مذهولة، انتفض جسده. اخترقت الرصاصة الثانية مؤخرة رقبته وقتلته على الفور.

الفصل الرابع

بعد شهر من مقتل يوري، توقف أحد أنسباء عائلة كارين – وهو رجل عجوز كان نصف ميت من الجوع والإرهاق، إذ كان متّجهاً من أوديسا إلى موسكو بحثاً عن زوجته، التي اختفت خلال قصف شهر نيسان – توقف ذات ليلة عند تاتيانا إيفانوفنا. روى لها أخبار نيقولاي أليكسندروفيتش وعائلته وأعطاها عنوانهم. كانوا يتمتعون بصحة جيدة، لكنهم يعيشون حياة بائسة. "لو كان بإمكانك أن تجدي رجلاً تثقين به..."، تردد في كلامه قبل أن يكمل، "لكي يحمل إليهم ما تبقى لهم...".

غادرت العجوز إلى أوديسا، حاملة معها الجواهر، في حاشية تنورتها. سارت ثلاثة أشهر على طول الطرق، مثلما كانت تفعل في شبابها عندما تذهب في رحلة الحج إلى كييف، لتصعد أحياناً إلى قطارات الجائعين الذين كانوا قد بدؤوا بالاتجاه جنوباً. ذات مساء من شهر أيلول، ذهبت إلى عائلة كارين. ليس عليهم أبداً أن ينسوا اللحظة التي طرقت فيها الباب، حين رأوها تظهر أمامهم، بمحيّاها المتهالك والهادئ، وحزمة ملابسها على ظهرها، والألماس الذي

يضرب ساقيها المرهقتين، ولا وجهها الشاحب. بدا أن كل دمائها قد نزفت... ولا حتّى أن ينسوا صوتها عندما أخبرتهم بوفاة يوري.

كانوا يعيشون في غرفة مظلمة في منطقة المرفأ. تتدلى أكياس البطاطس على البلاط للتخفيف من أثر الرصاص. كانت هيلين فاسيليفنا مستلقية على فراش قديم ملقى على الأرض، بينما لولو وأندريه يلعبان الورق على ضوء موقد صغير، حيث كانت ثلاث قطع من الفحم تحترق. كان الجو بارداً بالفعل، وكانت الرياح تهب من خلال النوافذ المكسورة. كان سيريل نائماً في الزّاوية، وبدأ نيقولاي أليكسندروفيتش بالقيام بما أصبح لاحقاً المهنة الرئيسية لما تبقى له من حياة: المشي من جدار إلى آخر، ويداه متشابكتان خلف ظهره، مفكراً فيما لن يعود أبداً.

"لماذا قتلوه؟"، سألت لولو، "لماذا يا رب، لماذا؟".

انهمرت الدموع على وجهها المتغير، الذي شاخ.

"كانوا يخشون أن يعود ويستعيد الأرضي. لكنهم قالوا إنه كان دائماً أحد أفراد آل بارين الطيبين، وإنه يجب تجنبه من بؤس المحاكمة والإعدام، وإنه كان من الأفضل قتله بهذه الطريقة".

"الجبناء، الكلاب!" صرخ سيريل فجأة، "أطلق عليه النار في ظهره! فلاحون ملعونون! لم تُجلدوا كما ينبغي

في عصرنا!". هزّ قبضته في وجه المرأة العجوز بنوع من الكراهية:

- أتسمعين؟ أتسمعين؟

- أسمع. لكن ما النفع بالشعور بالأسف إن مات بهذه الطريقة أو تلك؟ استقبله الله من دون أن يتناول الأسرار، رأيت ذلك بشكل واضح في وجهه الهادئ. ليمنحنا الله جميعاً نهاية هادئة مثل هذه. لم يرَ شيئاً، لم يتألم.

- آه! أنت لا تفهمين.

- الأفضل كان كذلك.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي لفظت فيها اسم يوري بصوت عالٍ. بدت كأنها أغلقت شفتيها القديمتين عليه إلى الأبد.

عندما كان الآخرون يتحدثون عنه، لم تكن تُجب، بل تبقى صامتة وباردة، تحدق في الفضاء بنوع من اليأس الجليدي.

كان الشتاء قاسياً للغاية. كانوا يفتقرون إلى الخبز والملابس. فقط المجوهرات التي جلبتها تاتيانا إيفانوفنا جلبت لهم القليل من المال في بعض الأحيان. كانت المدينة تحترق. يتساقط الثلج بنعومة، ويغطي عوارض المنازل المدمرة، المتفحمة، وجثث الرجال كما الخيول المذبوحة. في أوقات أخرى، تتبدل حال المدينة. تصل

مؤونة اللحوم والفاكهة والكافيار... الله وحده يعلم كيف... توقفت المدافع وعادت الحياة مرة أخرى، بحذر وسُكر. السُكر... وحدهما، سيريل ولولو شعرا به... لاحقاً، ستبقى ذكريات بعض الليالي المعينة، حيث كانت رحلات في قوارب، مع شبّان آخرين، كما طعم القبلات، والرياح التي تهب في الفجر على موجات البحر الأسود الهائجة، ذكريات لا تُمحى أبدا.

مرّ الشتاء الطويل، وصيف آخر، والشتاء الذي تلاه، عندما أصبحت المجاعة تحمل الأطفال الصغار القتلى المكومين على الأرض، في أكياس قديمة. بقيت عائلة كارين على قيد الحياة. في شهر أيار، ومع آخر باخرة فرنسية كانت تغادر أوديسا، تمكنوا من السفر عليها والوصول إلى القسطنطينية، ومن ثم مرسيليا.

نزلوا إلى ميناء مرسيليا في ٢٨ أيار من ١٩٢٠. في القسطنطينية، باعوا المجوهرات التي بقيت لهم وكان لديهم بعض المال، الذي تمت حياكته في أحزمتهم وفقاً لعادة قديمة. كانوا يرتدون الخرق، وجوههم غريبة ومخيفة، بائسة، قاسية. الأطفال، وعلى الرغم من كل شيء، بدوا مبتهجين. كانوا يضحكون بنوع من الكآبة القاتمة التي جعلت كبار السن يشعرون بتعبهم بشكل أوضح.

كان هواء أيار الصافي مشحوناً برائحة الزهور والفلفل. تحرك الحشد ببطء، توقفوا عند النوافذ، ضحكوا وتحدثوا بصوت عالٍ؛ الأضواء، والموسيقا في المقاهي، كل شيء بدا غريباً مثل حلم.

بينما كان نيقولاي أليكسندروفيتش يحجز غرف الفندق، بقي الأطفال وتاتيانا إيفانوفنا في الخارج للحظة، بينما امتدّ وجه لولو الشاحب إلى الأمام، وأغمضت عينيها، مستنشقة نسيم المساء. أضاءت الكرات الكهربائية الكبيرة الشارع بنور أزرق طافّ؛ كتل نحيلة من الأشجار لوحت أغصانها. مرّ البحارة ونظروا ضاحكين إلى الفتاة الجميلة التي لا تتحرك. ألقى أحدهم بلطف غصن الميموزا. بدأت لولو بالضحك. قالت: "البلد الجميل الساحر، يا له من حلم يا نيانيوشكا، انظري".

لكن المرأة العجوز كانت جالسة على مقعد حيث بدت وكأنها نائمة، بينما منديلها مشدود على رأسها الأبيض ويداها متصالبتان على ركبتيها. رأت لولو أن عينيها بقيتا مفتوحتين، وهي تحدق إلى الأمام مباشرة. لمست كتفها وقالت:

"نيانيوشكا؟ ما بك؟".

ارتجفت تاتيانا إيفانوفنا فجأة، ونهضت. في تلك اللحظة بالذات كان نيقولاي أليكسندروفيتش يشير إليهم.

دخلوا، وعبروا القاعة ببطء، وشعروا بالنظرات الفضولية من خلفهم. يبدو أن السجاد السميك الذي فقدوا عادة المشي فوقه، كان يلتصق بنعالهم مثل الصمغ. في المطعم كانت الأوركسترا تعزف. توقفوا، واستمعوا إلى موسيقا الجاز التي كانوا يسمعونها لأول مرة، وشعروا بنوع من الرعب الغامض، من الاختطاف المجنون. لقد كان عالماً آخر.

دخلوا إلى غرفهم، بقوا مسمّرين إلى النوافذ لفترة طويلة، وهم يشاهدون السيارات المارة في الشارع. لم يتوقف الأطفال عن القول:

"لنخرج، لنخرج، لنذهب إلى أحد المقاهي، إلى المسرح".

استحمّوا، نظفوا ملابسهم واندفعوا نحو الباب. لحق بهم نيقولاي أليكسندروفيتش وزوجته ببطء كبير، بألم كبير، لكنهما كانا أيضاً متعطشين للحرية والهواء.

على العتبة، استدار نيقولاي أليكسندروفيتش. أطفأت لولو الكهرباء. لقد نسوا تاتيانا إيفانوفنا وهي جالسة أمام النافذة. أضاء نور أنبوبة الغاز الموضوعة أمام الشرفة الصغيرة رأسها المنخفض. كانت بلا حراك، بدت كأنها تنتظر. سأل نيقولاي أليكسندروفيتش:

"هل ستأتين معنا يا نيانيوشكا؟".

لم تردّ.

"ألستِ جائعة؟".

هزّت رأسها، ثم وقفت فجأة، وهي تضفر أطراف شالها بعصبية:

- هل عليّ أن أفرغ حقائب الأولاد؟ متى سنرحل؟

- لكننا وصلنا للتو. لماذا تريدين المغادرة؟

"لا أعرف"، همهمت قائلة بعبارة غائبة ومتعبة: "اعتقدت...."، تنهّدت، أبعدت ذراعيها، وقالت بصوت خفيض: "حسناً".

- أتريدين المجيء معنا؟

- كلّا، شكراً، يا هيلين فاسيليفنا.

تفوّهت بذلك بجهد كبير: "لا، حقّاً لا".

سُمعَ صوت الأولاد وهم يركضون في الرواق. نظر العجائز إلى بعضهم بعضاً بصمت وهم يتنهدون، ثم أشارت هيلين فاسيليفنا بيدها المتعبة، وخرجت، وخلفها سار نيقولي أليكسيندروفيتش، بعد أن أغلق الباب بهدوء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الخامس

وصل آل كارين إلى باريس في بداية الصيف، واستأجروا شقة صغيرة مفروشة في شارع قوس النصر (l'Arc–de–Triomphe). في ذلك الوقت، غزت باريس الموجة الأولى من المهاجرين الروس، الذين حُشروا جميعاً في باسي وحول ساحة النجمة، متجهين غريزياً نحو الغابة القريبة. كان الحرّ خانقاً في ذلك العام.

كانت الشقة صغيرة ومظلمة وخانقة، وتفوح منها رائحة الغبار والأقمشة القديمة. كانت السقوف المنخفضة تثقل كاهل الرؤوس؛ ومن النوافذ يمكنك رؤية الفناء، الضيق والعميق، بجدرانه المطلية باللون الأبيض، والتي تعكس بقسوة شمس تموز. منذ الصباح يتم إقفال الدرفات المتداخلة، ففي هذه الغرف الأربع الصغيرة المعتمة، كانت عائلة كارين تعيش لغاية المساء، من دون أن تخرج، وهي مدهوشة من ضجة باريس، متنشقة روائح المغاسل النتنة، كما روائح الطبخ، التي كانت تصعد عالياً من الفناء. يجيئون ويروحون، من جدار إلى آخر، بصمت، مثل ذباب الخريف، عندما تمر الحرارة والنور والصيف،

لتطير بألم، مرهقة ومتضايقة، على الألواح الزجاجية، لتجرّ أجنحتها الميتة.

كانت تاتيانا إيفانوفنا، جالسة طوال اليوم، في غرفة الغسيل الصغيرة في الجزء الخلفي من الشقة، تصلح الأغراض الجانبية. تفتح مدبرة المنزل، وهي فتاة من منطقة النورماندي، حمراء ونضرة، ثقيلة مثل أحصنة البيرشيرون، البابَ أحياناً، وتصرخ: "ألا تشعرين بالملل؟". فتتخيل أن هذه الغريبة قد تفهم عليها بشكل أفضل إذا ما نطقت الكلمات بقوة، كما الحال عند مخاطبة الصم، وهذا ما جعل صوتها المدوي يهز خزف المصباح.

تهز تاتيانا إيفانوفنا رأسها بإبهام، وتعود الخادمة لتحريك الطناجر.

كان أندريه قد أرسل إلى مدرسة داخلية تقع على شاطئ بحر بروتاني. بعده بفترة، غادر سيريل. عاد ليجد زميلته في الزنزانة، الممثلة الفرنسية، التي احتجزت معه في سجن سانت بطرسبرغ، العام ١٩١٨. وهي الآن تحظى بدعم كبير. كانت فتاة بهية، كريمة، شقراء بجسم ثقيل جميل، مجنونة بسيريل... وهذا ما جعل الحياة أسهل. لكنه، في بعض الأحيان، وهو عائد إلى منزله، عند الفجر، كان ينظر إلى الفناء تحت نوافذه، مع الرغبة في أن يتمدد

على هذه الأحجار المكسوة بالحصى الوردية وأن ينتهي، لمرة واحدة وإلى الأبد، من الحب والمال وكل هذه التعقيدات.

من ثم، ينسى هذه الحالة. يشتري ثياباً جميلة. يشرب. وفي نهاية شهر حزيران، يرحل إلى دوفيل، مع عشيقته.

في باريس، عندما تنخفض درجة الحرارة، في المساء، تخرج عائلة كارين، وتتوجه إلى الغابة، إلى جناح دوفين. يمكث الوالدان هناك، يستمعان بحزن إلى ضجيج الأوركسترا، متذكرين جزر موسكو وحدائقها، بينما تسير لولو والفتيات الصغيرات الأخريات على طول الأروقة المظلمة، وهنّ يردّدن أبيات شعر ويلعبن لعبة الحب.

كانت لولو في العشرين من عمرها. صارت أقلّ جمالاً من ذي قبل، نحيفة مع حركات مفاجئة، مثل حركات صبي، ذات بشرة داكنة خشنة، حرقتها الريح من مشيها الطويل، تعابيرها غريبة، مرهقة وقاسية. لقد استمتعت بحياتها المتقاذفة، المهددة، المثيرة. أصبحت تفضل الآن كلّ هذه تلك النزهات في شفق باريس، والأمسيات الطويلة الصامتة في الحانات الصغيرة، ذات قضبان الزنك الصغيرة المزدحمة برائحة الطباشير والكحول وصوت البلياردو في الغرفة الخلفية. نحو منتصف الليل، كانا يعودان عند هذا أو ذاك، ليعاودا الشراب مرة أخرى،

لمداعبة بعضهما البعض في الظلّ. كان الوالدان نائمين. سمعا بشكل غامض صوت الغراموفون وهو يصدح حتى وضح النهار. لم يريا شيئاً، أو لم يرغبا في رؤية أي شيء.

ذات ليلة خرجت تاتيانا إيفانوفنا من غرفتها لإخراج بعض الغسيل من الحمام؛ كانت قد نسيتها في اليوم السابق فوق سخان الحمام، وكان لا بدّ من إصلاح زوج جوارب لولو. في كثير من الأحيان، كانت تعمل في الليل. كانت بحاجة إلى القليل من النوم، وبحلول الساعة الرابعة أو الخامسة صباحاً كانت تستيقظ، تتجول بصمت في الغرف، لكنها لم تدخل الصالون قط.

في تلك الليلة سمعت وقع خطى وأصوات في الردهة. لقد غادر الأطفال منذ فترة طويلة، بلا شك... رأت ضوءاً تحت باب غرفة المعيشة. نسوا إطفاء الكهرباء مرة أخرى، هذا ما فكرت فيه. فتحت الباب، وعندها فقط سمعت صوت الغراموفون وهو محاط بسور من الوسائد. بدت الموسيقا المنخفضة، اللامعة، كأنها تمرّ عبر عمق المياه. كانت الغرفة نصف مظلمة. لم يُضِئ الديوان سوى مصباح محجوب بقطعة قماش حمراء، حيث بدت لولو، وهي متمددة، وكأنها نائمة، بينما ثوبها مفكوك من على صدرها، محتضنة بين ذراعيها صبياً شاحب الوجه، مقلوباً إلى الخلف. تقدمت المرأة العجوز. كانا في

الواقع نائمين، وشفاههما ما زالت متلاحمة، ووجههما مضغوطان معاً. رائحة الكحول والدخان الكثيف تملأ الغرفة. أكواب وزجاجات فارغة وأسطوانات ومنافض سجائر ممتلئة ووسائد ما زالت تحافظ على شكل الجثث ملقاة على الأرض.

استيقظت لولو، حدقت في تاتيانا إيفانوفنا، ابتسمت؛ كانت عيناها الواسعتان قد اسودتا من جراء النبيذ والحمى، وفيهما تعابير ساخرة من اللامبالاة والتعب الشديد. همست بهدوء:

"ماذا تريدين؟".

شعرها الطويل الفضفاض ينزلق على السجادة؛ قامت بحركة لرفع رأسها فتوجعت. كانت يد الصبي مشدودة على الخُصل المتناثرة. انتزعتها فجأة، وجلست.

"ماذا هناك؟"، قالت بصبرٍ نافد.

نظرت تاتيانا إيفانوفنا إلى الصبي. كانت تعرفه جيداً. كثيرا ما رأته عند عائلة كارين عندما كان طفلاً؛ كان اسمه الأمير جورج أندرونيكوف، تذكرت تجاعيد الشعر الأشقر الطويل، الياقات المصنوعة من الدانتيل. "ارمِه في الخارج حالاً، هل تسمعين؟"، قالت فجأة، وهي تصر على أسنانها، بينما وجهها العجوز يرتجف ويصاب بالشحوب.

رفعت لولو كتفيها.

"حسنا، اسكتي... سيرحل في الحال".

"لوليتشكا"، همست المرأة العجوز.

"حسناً، حسناً، حبّاً بالله"

أوقفت الغراموفون، أشعلت سيجارة، سرعان ما رمتها، لتأمر باختصار:

"ساعديني".

بصمت، رتّبتا الغرفة، والتقطتا أعقاب السجائر، والأكواب الفارغة. فتحت لولو المصاريع، واستنشقت ملء رئيتها أنفاس الهواء النقي المتصاعد من الأقبية.

"يا لها من حرارة، أليس كذلك؟".

لم تُجب المرأة العجوز بأي كلمة، أدارت عينيها بنوع من العفة البرية.

جلست لولو على حافة النافذة، بدأت تهتز برفق، وهي ترندح. بدت مريضة، وآثار السكر عليها. ظهرت وجنتاها شاحبتين عبر بقع زاهية تحت البودرة التي محتها القبلات. العينان العريضتان المحلقتان تحدقان في الأمام مباشرة، بعمق وفراغ.

"ما خطبك يا نيانيا؟"، قالت أخيراً، "إنه الأمر نفسه كل ليلة"، بصوتها الهادئ، الأجش من النبيذ والدخان.

"وفي أوديسا، يا إلهي؟... على متن الباخرة؟... ألم

تلاحظي شيئاً قطّ؟".

"يا للعار"، همست المرأة العجوز بتعبير من القرف والألم.

– يا للعار! ووالداك ينامان بالقرب من هنا.

– وماذا في ذلك؟ أهكذا إذاً، هل أنت مجنونة يا نيانيا؟ لا نفعل شيئاً سيئاً. نشرب قليلاً، نقبّل بعضنا، أين المشكلة في ذلك؟ أتعتقدين أن أهلنا لم يفعلوا ذلك حين كانوا شبابا؟

– لا يا ابنتي.

– آه، أتظنين ذلك؟

– أنا أيضاً كنت شابة، يا لوليتشيكا. لقد مضى زمن طويل على ذلك، لكنني لا زلت أذكر دم الشباب الحامي في الأوردة. أتعتقدين أنه يمكن نسيان ذلك؟ ما زلت أذكر عماتك، حين كنّ في العشرين، مثلك أنت. كان ذلك في كارينوكوفا، وفي الربيع... آه، يا له من طقس عرفناه تلك السنة... كل يوم، نزهة في الغابة، على مجرى ماء... وفي المساء، الحفلات الراقصة عند جيراننا أو عندنا نحن. كان لكل واحدة حبيبها، وفي كثير من المرات كانوا يذهبون كلهم، على ضوء القمر، كل ثلاثة معاً. جدتك المرحومة كنت تقول: "في زمننا...". ماذا؟ كن يعرفن جيّداً أن هناك أشياء يُسمَح بها، وأخرى ممنوعة... في الصباح، في بعض

الأحيان، كنّ يأتين إلى غرفتي ليخبرنني بما قاله أحدهم، أو الآخر. في أحد الأيام، خطبن، وتزوجن، وعشن، مع نصيبهن من البؤس كما مع نصيبهن من السعادة، بصراحة حتى اليوم الذي استدعاهن الله فيه... متن وهنّ صغيرات، كما تعلمين، واحدة عند الولادة، والأخرى بعد خمس سنوات من حمّى شديدة... آه، نعم، أذكر. كان لدينا أجمل الخيول في المنطقة، وكانت تركض خبباً، وأحياناً والدك، الذي كان صبياً صغيراً في ذلك الوقت، وأصدقاؤه، وعمّاتك، مع فتيات أخريات، في الغابة، مع أتباعهم الذين حملوا أمامهم المشاعل.

"أجل"، قالت لولو بمرارة، وهي تشير إلى الصالون الداكن الصغير الكئيب والفودكا الشنيعة في قاع الكأس التي كانت تدور ميكانيكياً بين أصابعها. "بالطبع تغير المشهد...".

"ليس هذا فقط ما تغير"، تمتمت المرأة العجوز.

نظرت بحزن إلى لولو.

– يا ابنتي، سامحيني... لست بحاجة لأن تشعري بالعار، لقد رأيتك حين ولادتك... على الأقل، لم ترتكبي الخطيئة؟ لا زلت فتاة عذراء؟

– نعم، يا عجوزتي.

تذكرت إحدى ليالي القصف في أوديسا، عندما

أقامت في منزل البارون روزنكرانز، حاكم المدينة السابق؛ كان في السجن، وكان ابنه يعيش هناك. اندلعت المدافع فجأة لدرجة أنه لم يكن لديها الوقت للعودة إلى المنزل، وقضت الليلة في القصر المهجور مع سيرج روزنكرانز. ماذا حدث له؟ لقد مات، بلا شك... من التيفوئيد، الجوع، رصاصة طائشة، السجن... ليس أمامها سوى إحراج الاختيار، حقاً... يا لها من ليلة... كانت الأحواض تحترق... وقد شاهدا، من السرير حيث كانا يداعبان بعضهما بعضاً، طبقات النفط المشتعلة وهي تتدفق على الميناء.

تذكرت ذلك المنزل، إلى الجانب الآخر من الشارع، بواجهته المنهارة وستائر التول التي تتأرجح في الفراغ. في تلك الليلة، كان الموت قريباً جداً.

أعادت قولها بشكل تلقائي:

"نعم، نيانيوشكا".

بيد أن تاتيانا إيفانوفنا تعرفها جيدا. هزت رأسها، لتزم شفتيها القديمتين بصمت.

تحرك جورج أندرونيكوف، استدار يتثاقل، ثم استفاق بشكل غير كامل.

"أنا سكران بالكامل"، قال بهدوء.

ذهب مترنّحاً لغاية الكنبة، وضع وجهه في الوسائد

وبقي بلا حراك.

– إنه يعمل طيلة النهار في أحد الكراجات حالياً، وهو يموت من الجوع. إن لم يكن هناك نبيذ، وباقي الأشياء، فما نفع العيش؟

– أنت تسيئين إلى الله، يا لولو.

فجأة، خبأت الفتاة الشابة وجهها بين يديها، وانفجرت بنحيب يائس.

"نيانيوشكا... أريد أن أكون في بلادنا!".

"عندنا، عندنا!"، أعادت هذه الكلمة وهي تشد على إصبعها بحركة عصبية وغريبة لم تكن المرأة العجوز على دراية بها. "لماذا تمت معاقبتنا بهذه الطريقة؟ لم نرتكب أشياء سيئة".

داعبت تاتيانا إيفانوفنا شعرها الأشعث برفق، حيث كانت رائحة الدخان والنبيذ عالقة فيه.

– إنها إرادة الله المقدسة.

– آه، تشعرينني بالسأم، لا تجيدين سوى قول ذلك!

مسحت عينيها، هزّت كتفيها بعنف.

"هيا، دعيني! ابتعدي! أنا متوترة ومتعبة. لا تخبري الوالدين. ما النفع؟ ستؤذيهما من دون داع، ولن تمنعي أي شيء، صدقيني. لا شيء. أنتِ كبيرة في السنّ، لا يمكنك أن تفهمي".

الفصل السادس

ذات أحد من أيام شهر آب، حين عاد سيريل، طلب آل كارين إقامة قداس عن راحة روح يوري. ذهبوا جميعاً سيراً على الأقدام حتى شارع دارو. كان يوماً رائعاً. السماء الزرقاء تلمع. كان هناك معرض في الهواء الطلق في جادة تيرن: ثمة موسيقا بدائية، غبار. نظر المارة بفضول إلى تاتيانا إيفانوفنا، وشالها الأسود فوق شعرها وتنورتها الطويلة.

في شارع دارو، تمّ الاحتفال بالقداس في سرداب الكنيسة؛ طقطقت الشموع بهدوء. يمكنك سماع قطرات الشمع المحترق وهي تتساقط على البلاط ما بين فواصل الصلوات. "من أجل راحة روح خادم الله، يوري"، الكاهن، وهو رجل عجوز ذو يدين طويلتين مرتعشتين، تكلم بصوت منخفض مكتوم. صلى آل كارين بصمت. لم يعودوا يفكرون في يوري، لقد غادر، هو، إلى مثواه المطمئن، أما هم، فكان لا يزال أمامهم الكثير ليفعلوه، طريق مظلم وطويل. قالوا: "يا إلهي احفظني. يا إلهي اغفر لي". فقط تاتيانا إيفانوفنا، ركعت أمام الأيقونة التي كانت تتألق بضعف في الظل، لمست الحجارة الباردة بجبينها

المنحني، وفكرت فقط في يوري، صلّت من أجله فقط، من أجل خلاصه وراحته الأبدية.

عندما انتهى القداس، عادوا إلى منازلهم واشتروا ورداً صغيراً من فتاة كانت تمرّ بجوارهم، شعثاء الشعر وضاحكة. لقد بدؤوا في حبّ هذه المدينة وهؤلاء الناس. كانوا ينسون كلّ البؤس في الشوارع بمجرد طلوع الشمس ويشعرون بخفة القلب من دون معرفة السبب.

كانت عطلة الخادمة يوم الأحد. تمّ تقديم الوجبة الباردة على الطاولة. بالكاد أكلوا، ثم وضعت لولو بعض الورود أمام صورة قديمة ليوري عندما كان طفلاً.

قالت لولو: "يا لهذه النظرة الغريبة، لم ألحظها من قبل. إنها مزيج من اللامبالاة والتعب، انظروا".

"لطالما رأيت هذه النظرة في صور الأشخاص الذين سيموتون صغاراً أو بطريقة مأسوية"، غمغم سيريل بانزعاج، "كأنهم كانوا يعرفون كلّ شيء مقدماً ولم يهتمّوا. كان أفضل منّا جميعاً...".

تأملوا جميعا الصورة الصغيرة، التي بهت لونها.

"إنها السكينة، لقد سُلّم إلى الأبد".

رتبت لولو أزهارها بعناية، وأشعلت شمعتين، ووضعت واحدة من على كل جانب من الإطار، بقوا واقفين، بلا حراك، يحاولون التفكير في يوري، لكنهم شعروا فقط

بنوع من الحزن الجليدي، كما لو أن سنوات طويلة قد مرّت منذ أن مات. سنتان فقط.

قامت هيلين فاسيليفنا بمسح الغبار الذي يغطي الزجاج برفق، بحركة ميكانيكية، كما لو أنها دموع على وجهه. من بين جميع أطفالها، كان يوري هو الابن الذي فهمته أقل من غيره، والذي أحبته أقل من غيره. "إنّه مع الله الآن"، فكّرت، "إنه أسعد من الآخرين".

سمعوا ضجة احتفال في الشارع.

"الطقس حار هنا"، قالت لولو.

أدارت هيلين فاسيليفنا رأسها.

"حسناً، اخرجوا يا أطفالي، ماذا تريدون؟ اذهبوا وتنفسوا الهواء وشاهدوا الحفلة. عندما كنت في عمركم، فضلت معارض موسكو، على أحد الشعانين، ومهرجانات القصور".

"أنا أيضا أحبّ ذلك"، قالت لولو.

"حسنا، اذهبي"، قالت والدتها بنيرة متعبة.

غادر لولو وسيريل. وقف نيقولاي أليكسندروفيتش أمام النافذة وحدّق في الجدران البيضاء من دون أن يراها. تنهدت هيلين فاسيليفنا. كم تغير... كان غير حليق، يرتدي سترة قديمة مليئة بالبقع. كم كان وسيماً وجذاباً... وهي نفسها؟ نظرت إلى نفسها خفية، في المرآة، ورأت

وجهها الشاحب، وانتفاخ الجسد المرضي، ورداء الفانيلا القديم... عجوز، عجوز، يا إلهي!

"نيانيوشكا"، ندهت فجأة.

لم تكن قد نادتها بهذا الشكل من قبل. نظرت إليها تاتيانا إيفانوفنا - التي كانت تتجول بصمت من قطعة أثاث إلى أخرى، لترتب الأشياء وتضعها بالتناوب بعيداً وتتركها وراءها - نظرت إليها نظرة محيرة وغريبة.

- بارينيا؟

- لقد تقدمنا في السن، إيه يا عزيزتي؟ لكنك أنت، لم تتغيري. إنه لمن دواعي سروري مشاهدتك... لا، حقاً، أنت لم تتغيري.

- لا يتغير من هم في عمري إلا في التابوت" (قالت تاتيانا إيفانوفنا بابتسامة خفيفة).

ترددت هيلين فاسيليفنا بالكلام، ثم همست وهي تخفض صوتها:

"أما زلت تذكرين منزلنا هناك؟".

احمرت المرأة العجوز خجلاً فجأةً، ورفعت في الهواء يديها المرتجفتين.

- نعم، أتذكّر، يا هيلين فاسيليفنا! الله! أستطيع أن أخبركِ أين وُضع كل شيء! يمكنني دخول المنزل والسير بعينين مغمضتين! أتذكّر كل فستان ارتديتِه، وأزياء

الأطفال، والأثاث، والحديقة، يا ربي!

– صالة الزجاج، صالتي الصغيرة الزهرية اللون...

– الكنبة، حيث كنت تجلسين في أماسي الشتاء، حين كنّا نأخذ الأطفال إلى هناك.

– وقبل ذلك؟ زواجنا؟

– ما زلت أرى الثوب الذي ارتديتِه، الجواهر في شعرك... كان الثوب من الحرير المتموج، مع دانتيل الأميرة الراحلة، القديم. آه، يا إلهي، لن يكون له مثيل يا لوليتشكا.

صمتت كلتاهما. كان نيقولاي أليكسندروفيتش يحدق بثبات في الفناء القاتم. كان يستعيد رؤية زوجته في ذاكرته مرة أخرى، كما ظهرت له، لأول مرة، في الحفل، عندما كانت لا تزال الكونتيسة إليتزكا، بفستانها الساتان الأبيض الرائع وشعرها الذهبي. كم أحبَّها... لكنهما ينهيان حياتهما معاً. لقد كانت جميلة بالفعل... لو أن هاتين المرأتين تصمتان فقط... لو لم تكن هناك هذه الذكريات في أعماق قلبيهما، لكان الوجود محتملاً. تلفظ بجهد من بين أسنانه التي صرها على بعضها البعض، من دون أن يدير رأسه:

"ما نفع ذلك؟ ما نفع ذلك؟ لقد انتهى كل شيء. لن يعود أبداً. ليأمل آخرون بذلك، إن أرادوا... لقد انتهى،

انتهى"، ردد كلامه بنوع من الغضب.

أمسكت هيلين فاسيليفنا بيده، ورفعت أصابعه الشاحبة إلى شفتيه، كما كانت تفعل من قبل.

"إنه يأتي من أعماق الروح، أحياناً. لكن لا يوجد شيء لنقوم به. إنها إرادة الله... كوليا، يا صديقي، يا حبيبي، نحن معاً، والباقي...".

لوحت بيدها بشكل مبهم. نظرا إلى بعضهما بصمت، باحثين عن ملامح أخرى، ابتسامات أخرى، في أعماق الماضي، على وجهيهما القديمين.

كانت الغرفة مظلمة ودافئة. سألت هيلينا فاسيليفنا:

– لنأخذ سيارة أجرة، دعنا نذهب إلى مكان ما الليلة، أليس كذلك؟ كان هناك مطعم صغير، بالقرب من فيل دافراي، إلى جانب البحيرة، حيث ذهبنا في العام ١٩٠٨، هل تتذكر؟

– أجل.

– ربما كان لا يزال موجوداً؟

– ربما (قال وهو يرفع كتفيه). نتصور دائماً أن كل شيء ينهار معنا، أليس كذلك؟ لنذهب ونرَ.

نهضا، أشعلا الكهرباء. كانت تاتيانا إيفانوفنا واقفة في منتصف الغرفة تتمتم بكلمات غير مفهومة.

"أتبقين هنا، يا نيانيوشكا؟"، سأل نيقولاي

ألكيسندروفيتش بشكل تلقائي.

بدت كأنها استيقظت. تحركت شفتاها المرتجفتان مطوّلا، كأنّها تشكل الكلمات بجهد.

"وإلى أين سنذهب؟"، قالت أخيراً.

عندما أصبحت بمفردها، ذهبت وجلست أمام صورة يوري. ثبّتت نظرتها عليه، لكن لا تزال هناك صور أخرى عبرت ذاكرتها، أكثر قِدَماً، ومنسية من الجميع. وجوه ميتة، وفساتين عمرها نصف قرن، وغرف مهجورة... تذكرت أولى صرخات يوري الصغيرة والحزينة والصاخبة "كأنه كان يعرف ما ينتظره"، فكرت. لم يصرخ الآخرون بهذه الطريقة... ثم جلست أمام النافذة وبدأت في إصلاح الجوارب.

الفصل السابع

كانت الأشهر الأولى من حياة عائلة كارين في باريس هادئة. فقط في الخريف، عندما عاد أندريه الصغير من بروتاني، وكان من الضروري التفكير في الاستقرار، بدأ المال ينفد. آخر الجواهر، ذهبت منذ زمن بعيد. بقي رأس مال صغير يمكن أن يدوم سنتين أو ثلاثاً... وبعد ذلك؟ فتح بعض الروس مطاعم ونوادي ليلية ومتاجر صغيرة. قام آل كارين، مثل الآخرين، بشراء وتأثيث متجر في نهاية الفناء، وهناك بدؤوا ببيع عدد قليل من أدوات المائدة القديمة التي تمكنوا من أخذها معهم، والدانتيل، والأيقونات. في البداية، لم يشترِ أحدٌ أي شيء. وفي شهر تشرين الأول كان لا بدّ من دفع المستحقات. كذلك كان لا بدّ من إرسال أندريه إلى نيس. سبب له هواء باريس نوبات اختناق. فكروا في الانتقال من مكانهم. عُرضت عليهم شقة أرخص وأكثر إشراقاً بالقرب من بوابة فرساي، لكن لم يكن فيها سوى ثلاث غرف ومطبخ ضيق مثل الخزانة. أين ستقيم تاتيانا العجوز؟ ما من مجال أبداً في جعلها تصعد إلى الطابق السادس بساقيها المتعبتين. في غضون ذلك، كانت نهاية كل

شهر أكثر صعوبة من سابقتها. تركت الخادمات، واحدة تلو الأخرى، غير قادرات على التعود على هؤلاء الغرباء الذين ينامون أثناء النهار، وفي الليل يأكلون، ويشربون، ويتركون الأطباق المتسخة ملقاة على الأثاث في غرفة المعيشة، لغاية اليوم التالي.

حاولت تاتيانا إيفانوفنا القيام ببعض الأعمال الصغيرة، والغسيل، لكنها كانت أصبحت ضعيفة جداً، ويداها العجوزتان تفتقران إلى القوة اللازمة لرفع المراتب الفرنسية الثقيلة وقطع الغسيل المبللة.

الأطفال، الذين بدؤوا يشعرون بالإرهاق والغضب بشكل دائم، قسوا عليها، وكفوا يدها: "اتركي ذلك. اذهبي من هنا. أنت تخلطين بين كل شيء. تحطمين كل شيء". ثمّ تبتعد من دون أن تنطق بكلمة واحدة. في الواقع، لم يبدُ أنها تسمعهم. بقيت بلا حراك لساعات كاملة، ويداها متقاطعتان فوق ركبتيها، وهي تحدق بصمت في الفضاء. كانت محدودبة، شبه منحنية إلى قطعتين، بشرتها البيضاء، ماتت، وقد برزت عروقٌ زرقاء منتفخة في زوايا جفونها. في كثير من الأحيان، عندما ينادونها، لا تُجيب، بل تضغط فقط فمها الصغير الأجوف بقوة أكبر. لم تكن صماء برغم ذلك. في كل مرة يفلت فيها أحدهم من اسم بلد، حتى لو تم نطقه بصوت منخفض، بصعوبة، تنتفض

وتقول فجأة بصوتها الضعيف والهادئ:

"أجل... يوم عيد الفصح، حين احترق جرس تيمنايا، أذكر ذلك"، أو: "الجناح... حين كنتم قد غادرتم، هشمت الريح زجاج النوافذ... أسأل نفسي ماذا أصبح عليه ذلك كله؟".

ثمّ تصمت من جديد وتنظر إلى النافذة، والجدران البيضاء وإلى السماء من فوق السقوف.

"متى سيأتي الشتاء أخيراً؟ قالت. "آه، يا إلهي، لقد مرّ وقت طويل منذ أن رأينا برداً أو جليداً. الخريف طويل جداً هنا... في كارينوفكا، بلا شك، كل شيء أبيض بالفعل، والنهر متجمد. أتذكر، يا نيقولاي أليكسندروفيتش، عندما كنت في الثالثة أو الرابعة من عمرك، كنت صغيراً، وقد اعتادت والدتك الراحلة أن تقول: "تاتيانا، من الواضح أنك من الشمال، يا ابنتي... عند أول تساقط للثلج، تصبحين مجنونة". هل تتذكر؟".

"لا"، هَمهمَ نيقولاي أليكسندروفيتش بالقول بنبرة تعبة.

"أنا أتذكّر، وقريباً لن يتبقى غيري لكي يتذكر".

لم يكن آل كارين يردون عليها. لكل واحد منهم ذكرياته الخاصة، مخاوفه وأحزانه. ذات يوم قال نيقولاي أليكسندروفيتش:

"الشتاء هنا، لا يشبه أبداً الشتاء عندنا".
انتفضت.
"وكيف ذلك يا نيقولاي أليكسندروفيتش؟".
"سترين ذلك قريباً"، قال.

نظرت إليه بثبات وسكتت. صدمته نظرة عينيها الغريبة، الحذرة والمذعورة، للمرة الأولى.

"ما الخطب، أيتها العجوز؟"، سألها بهدوء.

لم تُجب بكلمة. ما نفع ذلك؟

تنظر كل يوم إلى التقويم، الذي يشير إلى بداية شهر تشرين الثاني، وتفحص حواف الأسطح لفترة طويلة، لكن الثلج لم يتساقط بعد. لم ترَ سوى القرميد الداكن، المطر، ارتعاش أوراق الخريف الجافة.

لقد أصبحت وحيدة الآن طوال اليوم. جاب نيقولاي أليكسندروفيتش المدينة بحثاً عن التحف والمجوهرات من أجل متجرهم الصغير. تمكنوا من بيع بعض الأشياء القديمة وشراء أشياء أخرى.

فيما مضى، كان نيقولاي أليكسندروفيتش يمتلك مجموعات من الخزف الثمين والأطباق المنحوتة. الآن، في بعض الأحيان، عندما يعود إلى المنزل، على طول شارع الشانزليزيه، عند المساء، مع حزمة تحت ذراعه، يحدث له أن ينسى أنها ليست للمنزل، ليست

له شخصيّاً بل من أجل العمل. كان يسير بسرعة، يتنفس رائحة باريس، ينظر إلى الشفق، الأضواء تلمع، سعيداً تقريباً، وقلبه مليء بالسلام الحزين.

حصلت لولو على وظيفة عارضة أزياء في دار أزياء. كانت الحياة منظمة بشكل غير محسوس. يعودون إلى المنزل في وقت متأخر، متعبين، حاملين معهم من الشارع، من عملهم، نوعاً من الإثارة التي يبدّدونها لبعض الوقت في الضحك، بالكلمات، لكن المسكن الكئيب والمرأة العجوز الصامتة دفعا بهم إلى الجمود شيئاً فشيئاً. يتناولون عشاءهم في عجلة من أمرهم، ويخلدون إلى الفراش، ينامون من دون أن يحلموا، وقد استهلكهم يومهم القاسي.

الفصل الثامن

مرّ شهر تشرين الأول وبدأت أمطار تشرين الثاني. من الصباح إلى المساء، كان بإمكانك سماع وابل المطر الذي يرتد بصوت زاعق عند اصطدامه بالحجارة المرصوفة بالحصى في الفناء. في الشقق كان الهواء حاراً وثقيلاً. عندما تُطفَأ أجهزة التدفئة ليلاً، تتغلغل الرطوبة القادمة من الخارج عبر الأخاديد الموجودة في الأرضية. تهب الرياح الحازرة تحت مآزر المداخن الحديدية المطفأة.

لساعات طويلة، وهي جالسة أمام النافذة، في الشقة الفارغة، كانت تاتيانا إيفانوفنا تشاهد هطول الأمطار، وانهمار القطرات الثقيلة على الزجاج مثل طوفان من دموع. من مطبخ إلى آخر، فوق الصناديق الصغيرة الشبيهة بخزائن الطعام والخيوط المشدودة بين مسمارين، حيث تجف الخرق، تتبادل الخادمات النكات، والشكاوى بهذه اللغة السريعة التي لا تفهمها. قرابة الساعة الرابعة عصراً، يعود الأطفال من المدرسة إلى المنزل. يمكنك سماع صوت البيانو حيث يعزفون عليه جميعهم في الوقت عينه، وعلى كل طاولة، في غرف الطعام تضاء مصابيح متشابهة.

كانت الستائر مسدلة أمام النوافذ، وكل ما كانت تسمعه هو صوت المطر وهدير الشوارع الأصم.

كيف يمكن لهم أن يعيشوا، كل أولئك البشر المسجونين في هذه البيوت السوداء؟ متى سيأتي الثلج؟

مرّ شهر تشرين الثاني، ثم الأسابيع الأولى من كانون الأول، التي كانت بالكاد أكثر برودة. الضباب، والدخان، وآخر الأوراق الميتة، المحطمة، جرفتها المياه على طول مجرى الجداول... من ثم عيد الميلاد. في ٢٤ كانون الأول، بعد مأدبة عشاء خفيفة، تناولوها على عجل، على زاوية من الطاولة، غادرت عائلة كارين لتحتفل بالعيد الجديد عند أصدقاء. ساعدتهم تاتيانا إيفانوفنا في ارتداء ملابسهم. عندما ودعوها قبل الخروج، شعرت بألم من الفرح لرؤيتهم يرتدون ملابس أنيقة، وكما في الماضي، ارتدى نيقولاي أليكسندروفيتش بدلة. نظرت مبتسمة إلى لولو، إلى فستانها الأبيض، وضفائرها الطويلة الملفوفة على مؤخرة رقبتها.

"هيّا يا لوليتتشكا، ستجدين خطيباً هذه الليلة، بمعونة الله".

هزت لولو كتفيها بصمت، وتركتها من دون أن تنطق بكلمة واحدة، وغادروا. كان أندريه يقضي عطلة عيد الميلاد في باريس. كان يرتدي السترة، والسراويل

الزرقاء الصغيرة، وقبعة مدرسة "ليسيه دي نيس"، حيث كان يتابع الدروس؛ بدا أطول وأقوى. كانت لديه طريقة سريعة وحيوية للتخلص من الكلمات، إذ إنّ لديه لهجة، وإيماءات، وعامية صبي ولد ونشأ في فرنسا. هذه الليلة، كانت أول مرة يخرج فيها مساء مع والديه. كان يضحك، يغني. انحنت تاتيانا إيفانوفنا من النافذة، تراقبه وهو يمشي إلى الأمام، يقفز فوق البرك. عادت تاتيانا إيفانوفنا لتكون وحدها مرة أخرى. تنهّدت. هبت الرياح، على الرغم من فصل الشتاء، المحملة بقطرات من المطر، على وجهها. رفعت رأسها، ونظرت بشكل آلي إلى السماء. بالكاد يمكننا أن نرى بين الأسطح مساحة مظلمة، ذات لون أحمر فريد، كما لو كانت مشتعلة بنار داخلية. في المنزل، كانت أجهزة الغراموفون تعزف موسيقا متنافرة بين الطوابق المختلفة.

همست تاتيانا إيفانوفنا: "عندنا..." وسكتت. ما نفع ذلك بعد؟ لقد انتهى الأمر من زمن طويل. انتهى كل شيء، مات.

أغلقت النافذة، وعادت إلى داخل الشقة. رفعت رأسها، مستنشقة الهواء بنوع من الجهد، بتعبير قلِق وغاضب. تلك الأسقف المنخفضة تخنقها. كارينوفكا... المنزل الكبير، نوافذه الضخمة، حيث تخترقه أمواج الهواء

والضوء، الشرفات، الصالات، وصالات العرض، حيث كان يقف خمسون موسيقياً في أمسيات الأعياد براحة تامة. تذكرت ليلة عيد الميلاد عندما غادر سيريل ويوري. ظنّت أنها ما زالت تسمع لحن الفالس الذي كان يُعزف في تلك الليلة. لقد مضت أربع سنوات. بدا لها كأنها ترى أعمدة الجليد المتلألئة في ضوء القمر. "لو لم أكن قد تقدمت في السن، لقمت بالرحلة"... لكنها لم تعد هي نفسها. "لا، لا"، تمتمت بغموض، لن تكون هي نفسها. الثلج، عندما تراه يتساقط، سيكون كل شيء قد انتهى. ستنسى كل شيء. سوف تستلقي وتغمض عينيها إلى الأبد. "هل سأعيش كلّ هذا الوقت؟"، همست.

بشكل تلقائي، لمت الثياب التي كانت منتشرة على الكراسي، فطوتها. منذ بعض الوقت، يتراءى لها وكأنها ترى في كل مكان بعض الغبار القليل، المتساوي، الذي كان يسقط من السقف ويغطي الأغراض. بدأ ذلك الأمر في الخريف، عندما يحلّ الليل مبكراً، وعندما تمّ إرجاع وقت تشغيل المصابيح لتوفير عملية استهلاك الكثير من الكهرباء. كانت تمسح وتهز القماش باستمرار؛ يتطاير الغبار بعيداً، ليعود ويسقط بعيداً على الفور، مثل الرماد الخفيف.

التقطت الأغراض، مررت عليها الفرشاة، وتمتمت

بتعبير عن الذهول والألم:

"ما هذا؟ ما هذا إذاً؟".

توقفت فجأة ونظرت حولها. في بعض الأحيان، لا تفهم سبب وجودها هنا، تتجول في هذه الغرف الضيقة. وضعت يديها على صدرها وتنهدت. كان الجو حاراً وثقيلاً، والسخانات، بشكل استثنائي، في هذه الليلة الاحتفالية، تنشر رائحة طلاء منعش. أرادت إغلاقها، لكنها لم تكن قادرة على فهم كيفية القيام بذلك. أدارت المقبض لبعض الوقت من دون جدوى، فتركته. مرة أخرى فتحت النافذة. الشقة، إلى الجانب الآخر من الفناء، كانت مضاءة لينبعث منها مستطيلٌ من الضوء الساطع يصل إلى غرفة النوم.

"عندنا"، فكرت بالأمر، عندنا، الآن"...

الغابة متجمدة. أغمضت عينيها، ورأت بوضوح غير عادي الثلج العميق، ونيران القرية تتأرجح من بعيد، والنهر على حافة المتنزّه، متلألئاً وقاسياً مثل الحديد.

بقيت بلا حراك، متجمعة على النافذة، تسحب شالها على خصلات شعرها الفضفاضة بإيماءة كانت مألوفة لها. كان هناك مطر قليل فاتر ونادر. القطرات اللامعة، مدفوعة بنفثات الرياح المفاجئة، بللت وجهها. ارتجفت، وشدّت ذيول حجابها الأسود القديم بالقرب منها. تطنّ أذناها،

ويبدو أحياناً أنّ ضوضاء عنيفة تخترقهما، مثل صوت الجرس المهتاج. يؤلمها رأسها، جسمها كله.

غادرت غرفة المعيشة، وذهبت إلى غرفة نومها الصغيرة، في نهاية الممر، وذهبت إلى الفراش.

قبل أن تضع نفسها في السرير، ركعت على ركبتيها وألقت صلواتها. رسمت شارة الصليب، لمست الأرض بجبينها المائل، كما تفعل كل مساء. لكن الكلمات تجمدت هذه الليلة على شفتيها. توقفت، حدقت بنوع من الدهشة في اللهب الصغير اللامع عند سفح الأيقونة. استلقت وأغمضت عينيها. لم تستطع النوم، كانت تسمع، رغماً عنها، صوت صرير الأثاث، صوت الساعة في غرفة الطعام، كأنه تنهد بشري يسبق صوت الساعة وهي تدق في الصمت، ومن فوقها، ومن تحتها، تتحرك الغراموفونات كلّها، في ليلة الميلاد هذه. ثمة من يصعد الدرج، ثمة من يهبط عليه، ويعبرون الفناء ويخرجون. تُسمع أصوات صرخات في كل لحظة: "كورديون، من فضلك!"، والصدى الباهت لفتح باب العربة وإغلاقه، وانحسار خطوات الأقدام في الشارع الفارغ. مرت سيارات الأجرة بسرعة. صوت أجش ينادي البواب إلى الفناء.

استدارت تاتيانا إيفانوفنا وهي تتحسر برأسها الثقيل

على الوسادة. سمعت دقات الساعة الحادية عشرة، ثم منتصف الليل. نامت لمرات عدة، كما استيقظت مراراً أيضاً. وفي اللحظة التي فقدت فيها وعيها، كانت ترى في حلمها منزل كارينوفكا، لكن الصورة تلاشت، سارعت إلى إغلاق عينيها لاستعادته مرة أخرى. في كل مرّة كانت التفاصيل مفقودة. في بعض الأحيان، يتغير لون الحجر الأصفر الرقيق إلى صبغة حمراء من الدم الجاف، أو كان المنزل أعمى، محاطاً بجدران، لتختفي النوافذ. ومع ذلك، سمعت صوت أغصان شجرة التنوب الخافت، المتجمدة، وهي تتمايل مع الريح، مع صوت زجاج خفيف.

فجأة يتبدل الحلم. ترى نفسها متوقفة أمام المنزل الخالي والمفتوح. كان يوماً خريفياً، عندما جاء الخدم لإشعال المواقد. كانت تقف وحيدة في الطابق السفلي. رأت في حلمها المنزل المهجور، الغرف الخالية، كما تركتها، والسجاد ملفوف على طول الجدران. كانت تصعد، وكانت جميع الأبواب تصفق، ويدفعها تيار الهواء للخلف، بضوضاء تأوه غريبة. كانت ذاهبة، مسرعة، وكأنها تخشى التأخر. رأت صفاً من الغرف الضخمة، كلها مفتوحة، فارغة، مع قطع من ورق التغليف والصحف القديمة ملقاة على الأرض، ترفعها الرياح.

أخيراً دخلت غرفة الأطفال. كانت فارغة مثل الغرف الأخرى، حتى سرير أندريه الصغير، الذي تمّ نقله بعيداً، شعرت في حلمها بنوع من الذهول: تذكرت أنها وضعته في زاوية من الغرفة ولفّت الفراش. أمام النافذة، جالساً على الأرض، كان يوري شاحباً، هزيلاً، في زي جندي كما في اليوم الأخير، وهو يلعب بالعظام القديمة، مثلما كان يفعل عندما كان طفلاً. عرفت أنه قد مات، ومع ذلك شعرت بفرحة غير عادية لرؤيته، حتى إن قلبها القديم المنهك بدأ ينبض بعنف مؤلم تقريباً؛ تصطدم الضربات العميقة، المملة، بجدران صدرها. كان لا يزال لديها متسع من الوقت لترى نفسها تركض نحوه، وتعبر أرضية الباركيه المغبرة، حيث تصر تحت قدميها، كما كان من ذي قبل، وعندما كانت على وشك أن تلمسه، استيقظت.

لقد تأخر الوقت. الصباح يطلع.

الفصل التاسع

استيقظت وهي تتأوه لتبقى بلا حراك، مستلقية على ظهرها، وتحدق بدهشة في النوافذ المشرقة. ملأ ضباب أبيض معتم الفناء، وبدا لعينيها المتعبتين مثل الثلج، كما لو كان يتساقط، لأول مرة، في الخريف، كثيفاً ومعمياً، ينشر نوعاً من الضوء الباهت، اللمعان الأبيض القاسي.

ضمّت ذراعيها على بعضهما البعض.

"الثلجة الأولى".

نظرت إليها لفترة طويلة كتعبير عن البهجة، التي كانت طفولية ومخيفة بعض الشيء ومجنونة. كانت الشقة صامتة. مما لا شك فيه، لم يعد أحد بعد. نهضت وارتدت ملابسها. لم ترفع عينيها عن النافذة، متخيلة تساقط الثلج، والثلج يبرز الهواء بسرعة عابرة، مثل ريش طائر. اعتقدت للحظة أنها سمعت صوت إغلاق باب. ربما كانت عائلة كارين قد عادت بالفعل وكانت نائمة؟ لكنها لم تكن تفكر فيهم. ظنّت أنها شعرت بقطع الثلج تتساقط على وجهها، بطعم الجليد والنار. أخذت معطفها، وربطت على عجل منديل رقبتها على

رأسها، وربطته حول رقبتها، وفتشت بشكل آلي على الطاولة، بيدها الممدودة، مثل رجل أعمى، عن مجموعة المفاتيح التي كانت تأخذها معها إلى كارينوفكا عندما كانت تخرج من البيت. لم تجد شيئاً، طأطأت بشكل محموم، متناسية ما تريد، تخلصت بفارغ الصبر من علبة النظارات، الحياكة التي بدأتها، صورة يوري عندما كان طفلاً...

تخيلت أنهم كانوا ينتظرونها. اجتاحتها حمّى غريبة أشعلت دماءها.

فتحت الخزانة، تركتها والباب الذي يتأرجح والدّرج المفتوح. سقط رف المعاطف. ترددت للحظة، وهزت كتفيها، كما لو لم يكن لديها وقت لتضيّعه، غادرت فجأة. عبرت الشقة، ونزلت الدرج بخطوتها الصغيرة السريعة والصامتة.

في الخارج، توقفت. ملأ الضباب الجليدي الفناء بكتلة بيضاء كثيفة، ارتفعت ببطء من الأرض مثل الدخان. لسعت القطرات الدقيقة وجهها، مثل أطراف إبر الثلج عندما تسقط بنصفها الذائب والممزوجة جميعها بأمطار شهر أيلول.

وخلفها خرج رجلان يرتديان بدلات ونظرا إليها بفضول. تبعتهما، وتسللت عبر الباب نصف المفتوح،

الذي سقط خلف ظهرها، بأنين منخفض.

كانت في الشارع، شارع مظلم مهجور. أشرق مصباح شارع مضاء من خلال المطر. كان الضباب يتبدد. بدأ رذاذ بارد قليلاً وحاد في السقوط؛ تلمع الأحجار المرصوفة والجدران بضعف. مرّ رجل يسحب نعله المبلل الذي ينبعث منه الماء. عبر كلب الشارع، بنوع من التسرع، اقترب من المرأة العجوز، شمّها، تبع خطواتها، مع قليل من الأنين والهدر القلق. تبعها لفترة ثم تركها.

ذهبت إلى أبعد ما تستطيع، ورأت ساحة وشوارع أخرى. مرّت سيارة أجرة من أمامها عن كثب لدرجة أن الطين تدفق على وجهها. لا يبدو أنها ترى أي شيء. سارت إلى الأمام مباشرة، وهي تترنح على الأحجار المبللة. شعرت في بعض الأحيان بالتعب الشديد لدرجة أن ساقيها بدت كأنهما تنحنيان تحت ثقل جسدها وتغرقان في الأرض. رفعت رأسها، ونظرت إلى النهار المقبل من جانب نهر السين، بقعة من السماء البيضاء في نهاية الشارع. في نظرها، كان يتحول إلى سهل من الثلج مثل سهل سوخاريفو. كانت تسير بشكل أسرع، منبهرة بنوع من أمطار النار التي تطايرت على جفنيها. رنّ في أذنيها صوت الأجراس.

عاد إليها وميض العقل للحظة. رأت بوضوح الضباب والدخان يتلاشيان، ثم يختفيان. بدأت تمشي مرة أخرى، قلقة ومرهقة، منحنية على الأرض. أخيراً وصلت إلى الأرصفة.

كان نهر السين مرتفعاً ويغطي الضفاف. الشمس تشرق، والأفق كان أبيض مع بريق نقي مضيء. اقتربت السيدة العجوز من الحاجز، محدّقةً بثبات في هذا الشريط من السماء المتلألئة. تحت قدميها، تم حفر سلم صغير في الحجر. أمسكت بالدرابزين، أمسكته بإحكام بيدها الباردة المرتعشة، نزلت. في الخطوات الأخيرة كان الماء يتدفق. لم تره. النهر متجمد، كما اعتقدت، يجب أن يكون متجمّداً في هذا الموسم.

بدا لها أنه كان عليها فقط أن تعبر وأن كارينوفكا إلى الجانب الآخر. رأت أنوار المصاطب تتأرجح عبر الثلج.

ولكن عندما نزلت، ضربتها رائحة الماء أخيراً. قامت بحركة مفاجئة من الذهول والغضب، وتوقفت لثانية، ثم نزلت مرة أخرى، على الرغم من الماء الذي كان يتسرب داخل حذائها ويثقل تنورتها. وفقط عندما عبرت نهر السين حتى خصرها، عاد وعيها تماماً. شعرت بالبرد، وأرادت الصراخ، لكن لم يكن لديها الوقت إلا لترسم

إشارة الصليب فتراجعت ذراعها المرفوعة: كانت ميتة.

طفت الجثة الصغيرة للحظة، مثل حزمة من الخرق قبل أن تختفي، عالقة في نهر السين المظلم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

'رواية جميلة وقوية ومؤثرة'

Independent

أمضت تاتيانا إيفانوفنا حياتها في خدمة آل كارين الذين ينتمون إلى البورجوازية الروسية، وقد أشرفت على تربية أولادهم وأحفادهم، جيلاً بعد جيل.

حين اندلعت الثورة الروسية، وجدت العائلة نفسها مطرودة من ممتلكاتها وأرضها. فتهاجر إلى أوديسا (أوكرانيا اليوم) ومن ثم إلى باريس حيث استقرت. هناك، في تلك الشقة الصغيرة، كان المنفيون يدورون في حلقة مفرغة... مثل ذباب الخريف.

بلمسة دقيقة وبارعة تستحضر تأثير تشيخوف، ترسم هذه الرواية ارتباكَ هؤلاء الناجين من عالم ضائع وحنينَهم إلى حياةٍ كانت.

إيرين نيميروفسكي (1903-1942) روائيّة روسية كتبت بالفرنسية. عرفت نجاحاً كبيراً في فرنسا خلال ثلاثينيات القرن الماضي. وهي الكاتبة الوحيدة التي مُنحت بعد وفاتها جائزة Renaudot عام 2004.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN 978-614-03-2278-3

9 786140 322783 >

DAR AL SAQI
دار الساقي

www.daralsaqi.com